HARLEQUIN

روايات احلام

أشواق مرّة

كيت والكر

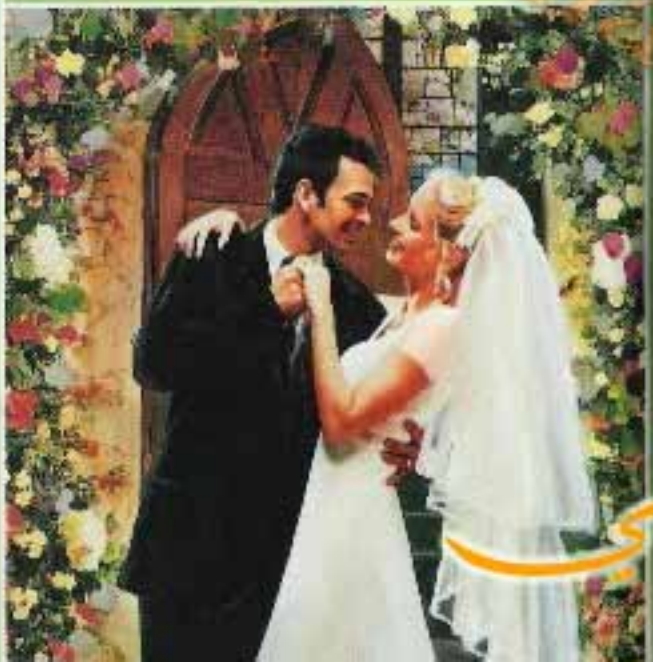

www.liilas.com/vb3

أشواق مرّة

- هل تريدينني يا حلوتي؟

لمكنت من أن تقول، وشيء من الضحك يشوب كلماتها: «لكن من أنت؟ أنا لا أعرف اسمك حتى».

نظرت إلى سواد عينيه ورأت التغيير السريع فيهما.

ضحك وقال: «اسمي ريكو وهو اختصار لريكاردو... ريكاردو جون كارلوس فاليرون في خدمتك انسة».

كان ما قاله صفعة وجهها. وصدمت الكلمات أحاسيسها كضربة قاسية، جعلت قلبها يتوقف عن الخفقان، وأنفاسها تموت في رئتيها.

ريكاردو فاليرون... الرجل الذي خطفها من عريسها يوم عرسها، الرجل الذي تعتمد على رحمته من أجل سلامتها، وربما حياتها... هو الرجل الذي تعرف أن عليها أن تخشاه أكثر من أي شيء آخر. فمصيرها ومصير أبيها معلقان بكلمة واحدة منه...

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١.٥ دينار	مصر: ٨ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٤ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال

www.liilas.com
شوق قلبي

كيت والكر

ولدت «كيت والكر» في «نوتنغها مشير»، لكنها كانت دائماً تشعر أن جذورها متأصلة في «يوركشير»، لأنها ترعرعت هناك. التقت زوجها في الكلية وعملت أولاً كمشرفة على مكتبة لكتب الأطفال. بعد ولادة ابنها الأول عادت إلى الكتابة التي أحبتها في طفولتها. عندما لا تعمل، تكرس بعضاً من وقتها لعائلتها وقططها الثلاث وولعها بهواية التخريم وجمع التحف ومشاهدة الأفلام والمسرحيات... والقراءة طبعاً.

١ ـ عروس الخوف

أوقف ريكو ڤاليرون السيارة الكبيرة القوية، خارج المنزل، وشد المكابح اليدوية. تفحص ساعته بسرعة، ثم أدار مفتاح المحرك ليسكته. وقال لنفسه إنه يملك الكثير من الوقت. وتراجع في مقعده مستقراً، ينتظر.

سمعت فليستي من غرفة نومها صوت وصول السيارة قبل ثانية من سماعها والدها يهرع من غرفة الطعام إلى الردهة الخارجية.

نادى عبر السلم، وصوته يردد بعض الصدى: «سيارتك هنا؟ هل أنت مستعدة؟».

سألت نفسها: هل أنا مستعدة؟ ونظرت إلى عينيها الرماديتين في مرآة طاولة الزينة، ثم أشاحت بوجهها على الفور. لم يعجبها ما رأت في هاتين العينين، فهما تنضحان بالكثير.

بدأ صبر جو هاملتون ينفد.

ـ فليس! هل سمعتني؟ السيارة هنا.. علينا أن نذهب.

ـ مهلاً لحظة.

وجدت فليستي صعوبة في الكلام عالياً بما يكفي ليصل صوتها من غرفة نومها إلى الطابق الأرضي.. وغابت القوة أو الإقناع عن صوتها. ولم يبدُ أبداً أهلاً للتصديق.

يجب ألا تبدو العروس هكذا قبل لحظات من توجهها إلى عرسها.

لكنه ليس العرس الذي خططت له.. لم يكن العرس الذي حلمت به

www.liilas.com/vb3

وهي فتاة صغيرة. ولا الحلم الذي ابتكرته في خيالها، وهي مستلقية في فراشها مستيقظة في أولى نوبات هواها المراهق. يومها تخيلت نفسها ساندريلا أو الملكة غولينفير، وعريسها يجمع في شخصه صفات الأمير الساحر وأحد فرسان الطاولة المستديرة، يتجه نحوها على ظهر جواد أبيض، ليحملها نحو السعادة الأبدية المكتملة.

ليس هكذا.

ليس كهذه التمثيلية الهزلية لزواج أجبرت عليه لخوفها ويأسها، وحاولت كل طريقة ممكنة للخلاص توصلت إليها.. لكن دون جدوى.

ـ فيليستي!

نفد صبر والدها. فهو لا يستخدم اسمها الكامل إلا عندما ينزعج منها. أحست بالسخط، وتصورته يدفع بكم قميصه إلى الوراء لينظر إلى ساعته متوتراً.

ـ أنا قادمة!

بمَ تجيب؟ ليس لديها بديل. لم يكن هناك فارس يمتطي جواداً أبيض يسير به خبباً لإنقاذها. لقد عجزت حتى عن إطلاع أمها على مشاعرها. لأن هذا سيكشف النقاب عن الفوضى التي أحدثها والدها، وعن الحفرة العميقة التي حفرها لنفسه، والتي غاب عنها كل أمل بالخروج.

إلا إذا استمرت في تنفيذ هذا.

ـ مهلاً لحظة!

أخذت نفساً عميقاً متنهدة واستدارت إلى المرآة مرة أخرى، تتفحص مظهرها.

الفستان الحريري الأبيض الذي أصر ادوارد على أنه يناسبها تماماً، بخطوطه الناعمة التي تجمل طولها النحيل، وتفصيلته الكاشفة التي تظهر ذراعين نحيلتين وبشرة ناعمة، لوحتها سمرة الشمس الذهبية. كان شعرها الأشقر الشاحب بعيداً عن وجهها، وملتفاً على مؤخرة رأسها تحت الطرحة

التي تنحدر كالشلال من تاج صغير. زاد هذا الطراز من إبراز عظام وجهها الرقيقة، وخديها المرتفعين المائلين، وعينيها الواسعتين الرماديتين.

لكن لون بشرتها غاب تحت مساحيق التجميل الموضوعة بعناية، كما انطفأ النور في أعماق عينيها.

بدلاً من ذلك، بدت كشخص على وشك الانطلاق في مسيرة نحو المشنقة.

قالت لصورتها في المرآة بقسوة: لن يصدق أحد هذا.. ألا يمكنك حتى أن تبتسمي؟

لا.. وبدت الابتسامة التي رسمتها على وجهها للحظة وكأنها تكشيرة. فأخفتها بسرعة، ورفعت تنورة الفستان، واتجهت نحو الباب.

صاح جو وهو يراها تهبط السلم نحوه: «أخيراً! سوف نتأخر!».

ردت فيليستي، تخفي ارتباكها تحت قناع من اللامبالاة: «أليس هذا من حق العروس؟ سينتظر ادوارد».

أوه.. أجل. سينتظر ادوارد، فهو سيكسب كثيراً من مهزلة الزواج هذه.. أكثر بكثير مما وعد به فيليستي عندما وافقت.

لمح ريكو دلائل حركة خلف زجاج الباب الأمامي المغشى. فتخلى عن جلسته المسترخية واستقام، وحدق بعينين سوداوين ضيقتين، تستوعبان ما يحيط به بسرعة. وبنظرة تقييمية، هز رأسه في رضى متجهم.

كان المكان خالياً. فالجميع مدعوون إلى عرس السنة حتى الخدم منحوا إجازة كي يقفوا خارج الكاتدرائية، ويراقبوا وصول الضيوف.. لو استمر حظه هكذا فسيتمكن من معالجة الأمر دون أن يراه أحد. ومع انفتاح الباب، نزل من مقعد السائق، ودسّ يده في جيبه.

صاح جو للسائق وهو يُخرج ابنته من المنزل: «نحن قادمان! هيا بنا، هيا فليس! سيظن السير ليونيل.. أوه.. ما هذا الآن؟».

أدارت فيليستي رأسها باتجاه الهاتف الذي بدأ رنينه يتعالى داخل المنزل، وقالت: «اتركه».

كل ما أرادته في تلك اللحظة هو أن ينتهي هذا. لكن والدها لم يكن قادراً على تجاهل الاستدعاء المُلحّ.

استدار عائداً وهو يقول: «اذهبي أنت حبيبتي.. سوف أرد على هذا ثم..».

وجدت فيليستي نفسها غير قادرة على الحركة.. بدت قدماها مسمرتين في مكانهما، ورفض دماغها أن يعمل.. اجتاحتها موجة كثيفة من الخوف عجزت عن تفسيرها، فتسللت كظل بارد على بشرتها، وجعلتها ترتجف بالرغم من حرارة شمس تموز. لم تعد ترى شيئاً، أو تحس بشيء يمكن أن يتسبب بهذا. مع ذلك..

ـ آنسة هاملتون؟

تكلّم السائق، ليلفت عينيها لتركزا عليه جيداً للمرة الأولى. وأعطتها أعصابها الحساسة انطباعاً مرتبكاً لرجل طويل ضخم الجثة يختلف عمّا توقعته عن سائق محترف.

كان يقف مستقيماً، متفاخراً أمام سيارة رولز رمادية لماعة. بوقفة انضباط عسكرية، وكتفين مستقيمتين تحت سترة رسمية سوداء، وصدر قوي ينحدر إلى خصر ضيق وساقين طويلتين جداً، وحذاء لماع، أنيق إلى درجة يبدو فيها مصنوعاً يدوياً، ويد بقفاز أسود جلدي طويل تمسك الباب الخلفي للسيارة وتبقيه مفتوحاً.

كان وجهه مخفياً تحت قبعة مرتفعة، ومشدودة إلى الأسفل لاتقاء أشعة الشمس الساطعة، لذلك لم تستطع تبيان ولو شيء بسيط من قسمات وجهه.

ـ هل أنت الآنسة نيليستي هاملتون؟

بدا مندهشاً، وكأنها ليست ما توقع تماماً. وظهرت في حديثه لكنة بسيطة قد تكون التقطها حين تكلم للمرة الأولى. صوت غني وأجش، قلب حروف اسمها إلى إغواء النف حول أحاسيسها.

لقد قال: فايليسي. وفجأة تحول الارتجاف الذي أحست به إلى

استجابة مختلفة تماماً، غير ملائمة أبداً لعروس تتجه نحو عرسها وزفافها إلى رجل آخر، أو أنها قد تكون غير مناسبة لو أنها ستتزوج شخصاً تهتم به حقاً.

صححت له بهشاشة: «فيليستي، هذا صحيح».

لا بد أنها تبدو كبلهاء مترددة، وهي تقف هناك وسط الطريق الداخلية، وكأنها لا تستطيع أن تقرر إلى أين تذهب. جعلتها الطريقة التي يراقبها فيها السائق تشعر بأنها غير مرتاحة وبأنه يتفحصها تحت المجهر.

ـ أنا فيليستي جاين هاملتون، وسرعان ما سأصبح فيليستي جاين ڤيتابيلز.

استجمعت بسرعة أفكارها المشتتة. وأمسكت التنورة ترفعها بقبضة متوترة جداً. تجعد الحرير الجميل كثيراً وهي تتجه نحوه وتقول: «لكنك تعرف هذا.. أليس كذلك؟ على أي حال، فهذا سبب وجودك هنا».

لم يتجاوز صمته ضربة القلب الطويلة لكنه أثار أعصابها المشدودة وجعلها غير مرتاحة.

قال بصوت منخفض ناعم: «أجل آنسة هاملتون.. هذا بالضبط سبب وجودي هنا».

كانت عيناه قاتمتين، بعمق الأبنوس البني حتى أنهما بدتا سوداوين، وكان لبشرته نعومة لون الزيتون، مما جعل أصابعها تتلهف لتمتد وتلمسه. أنفه مستقيم يتوالف مع فك صلب عنيد يبرز قوة يصل حدها إلى القسوة. أخبرها فمه قصة مختلفة، فهو جميل وناعم بشكل يثير الدهشة. مما جعلها تتشوق لتراه يبتسم.

ـ ألن تدخلي إلى السيارة آنسة هاملتون؟

ـ أنا.. أوه.. أجل.

وابتعدت عن الطريق الذي سارت فيه أفكارها، ولم تستطع سوى أن ترمش بعينيها بارتباك وحرج، وموجة احمرار تجتاح خديها.. كانت هذه النظرة الثاقبة المتفحصة قوية جداً وأحست بأنه يستطيع أن يقرأ أفكارها

والخيالات التي تريد أن تخفيها عنه.

يجب أن تمنع نفسها عن التفكير بتلك الخيالات! لعلها لا تحب ادوارد، لكنها وعدت أن تتصرف كزوجة له، ولا يجب أن يبرز أي دليل على أن الزواج ليس حقيقياً. سيكون من الصعب المحافظة على هذا الوعد، إذ أن الخيالات عن رجل آخر قد بدأت، وهي لم تضع خاتم الزواج بعد في إصبعها.

ـ أدخلي إلى السيارة.

شيء ما تغيّر. فجأة، وبشكل خبيث، تغيرت نبرة صوته. برزت رنة جديدة في صوته خدشت بغير ارتياح أعصاب فيليستي المتوترة.

ـ أنا أنتظر والدي..

ـ يمكنك انتظاره في السيارة.

ارتفعت نبرة الصوت التي أزعجتها، وبشكل مثير للقلق. وفي محاولة لإخفاء شعورها وتجاهل وخز الدبابيس البارد البطيء على بشرتها، رفعت ذقنها، والتقت بالنظرة البنية.

ـ أفضل أن أبقى هنا. لا أريد أن أجمد الفستان.

توجهت النظرة اللامعة لهاتين العينين السوداوين إلى الفستان بتساؤل. بدت النظرة نظرة ازدراء بحت، وهزة الكتفين العريضتين صرفت النظر عن تعليقها على أي تفاهة أنثوية.

ـ سنتأخر.. أرجوك أدخلي السيارة آنسة هاملتون.

كانت كلمة «أرجوك» هي التي أثرت فيها.. إذ أرسل صوته شيئاً بارداً، كريهاً، شق طريقه فوق عمودها الفقري.

استطاعت من داخل الردهة سماع والدها يكافح لإنهاء المكالمة: «عليّ حقاً أن أذهب.. هل نستطيع الكلام عن هذا فيما بعد..؟».

سيكون معها في أية لحظة الآن. أعاد لها هذا شيئاً من ثقتها بنفسها، التي مزقها تصرف السائق المثير للاضطراب. ستدخل السيارة الآن، لأنها تريد ذلك، لا بسبب إصراره.

لم تدرك مدى صعوبة هذا. ولم تكن تتوقع أية مشكلة في الجلوس في المقعد المرتفع الجلدي وهي تعالج أمر تنورة الفستان الطويلة، والذيل الحريري الطويل.. وكانت تضع قدماً في السيارة، حين نتج عن محاولتها لعدم تجعيد الفستان خسارة توازنها مما انتزع صرخة صدمة من بين شفتيها.

ـ أوه!

وقف بجانبها في ثانية، وامتدت يد بقفاز، وأمسكت الأصابع التي كانت تلوح بذعر، بحثاً عن مساعدة. أمسكتها واحتفظت بها. توترت عضلات يده وذراعه القوية القاسية كالحديد لدعم وزنها.

وفي لحظة، استقامت مجدداً، واندست بأمان في السيارة، دون أن يتجعّد فستانها، ولم يعد هناك سوى موجة جديدة من الاحمرار أعطت دليلاً على ما كاد أن يكون كارثة تجنبتها لتوها.

تمكنت من قول «شكـ.. شكراً» وهي تعي بارتجاف أن قربه منها، والإحساس بقوته تحت أصابعها هما اللذان سببا انقطاع نفسها، وتردد صوتها، وليس بسبب فكرة وقوعها.

ـ دي نادا.

ورتبت يدان قويتان طيات تنورة فستانها لتكون بعيدة عن الباب. ومع ابتعاد النظرة الخادشة لعينيه عنها، فيما هو مركز على ما يفعله، وجدت فيليستي أن بعض التوتر المزعج يتسلل من جسمها.

وقالت لنفسها إنها تبالغ حتماً في ردة الفعل، ولا بد أنها تقفز إلى استنتاجات غير مبررة إطلاقاً، وأنها تطلق العنان لمخيلتها لتجري بعيداً، وينتهي بها الأمر إلى خلق موقف لا وجود له.

قالت مجدداً: «شكراً لك».

تكلّمت هذه المرة بثقة أكبر، وحين رفع السائق رأسه، تمكنت من أن تبتسم، وهي تحدّق مباشرة إلى البحيرتين العميقتين في عينيه.

لم تجد استجابة. لا شيء سوى نظرة جوفاء باردة، هي الأقسى مما

واجهته، نظرة حولت دمها إلى جليد، وجعلتها تتراجع في المقعد لتغوص فيه برعب.

كانت أفكارها لا تزال تدور، وكأن هذه النظرة ضربة جسدية حقيقية، حتى أنها بالكاد لاحظت الطريقة التي تحرك فيها بحدة، مقفلاً الباب عليها بضربة ثابتة حاسمة.. حين تحرك بخفة ودون استعجال حول السيارة أدركت أن لا شيء يجري كما توقعت.

فوالدها لا يزال في المنزل و..

ـ مهلك لحظة.

وتجاهلها. ووضع ساقيه الطويلتين داخل السيارة وأدار مفتاح المحرك في اللحظة ذاتها التي صفق بها الباب وراءه.. ومع تحرك الرولز، راح يقودها بيد واحدة ثم سحب شيئاً من جيبه ورفعه. انكمشت معدتها في ذعر مفاجيء، وأدركت فيليستي أن ما يحمله هو هاتف نقال.

صاح وعينيه على الطريق أمامه: «حسناً.. انتهت المهمة. يمكنك أن تتوقف الآن».

ـ قلت لك مهلك لحظة.

وأخذت تتلوى في مقعدها وتنظر إلى المنزل خلفها وتراقبه يبتعد مع إسراع السيارة في الانطلاق.

ـ هل سمعتني؟ لا يمكننا المغادرة.. والدي..

وماتت الكلمات على شفتيها عندما أدركت ما قاله.

«المهمة انتهت.. يمكنك التوقف الآن».

مالت إلى الأمام تضرب بقوة على الزجاج الذي يفصل بينها وبين السائق.

ـ ماذا تفعل؟ إلى أين نحن ذاهبان؟ لا تستطيع..

تجاهلها. وأقفل الهاتف النقال وأعاده إلى جيبه، ثم وضع يده على المقود. غيّر السرعة، وضغط قدمه على الدواسة.

ـ يجب أن تتوقف! فوالدي..

حركة خفيفة من عينيه، بنظرة سريعة إلى المرآة الخلفية، أجفلتها.. وأخذت تتلوى مرة أخرى في مقعدها. لم يعد أمامها سوى أن تراقب ما يجري بيأس وهي ترى خلفها والدها وقد أرعبه صوت السيارة التي تبتعد. وتوقف فجأة، لم يستطع فعل شيء سوى التحديق فيهما بصدمة وعدم تصديق، وذهول كامل يبدو في كل خطوط جسمه.

لكنهما كانا قد ابتعدا كثيراً فعجزت عن قراءة تعابير وجهه. ورأته يرفع ذراعه، ويشير بها بجنون. وأيقنت أنه فتح فمه ليصيح، لكن صيحاته لم تكن مسموعة.

ثم عرفت.. وأدركت بالضبط ماذا حدث. كانت المكالمة الهاتفية التي ألهت والدها وهما يخرجان من المنزل، مخططاً لها.. خطط لها هذا الرجل لتتزامن بالضبط مع خروجهما، فيبقى والدها مشغولاً بما يكفي من الوقت لإدخالها إلى السيارة.

أبي...!

تشكّلت الكلمة في دماغها، لكن صدمتها الكبرى منعتها من لفظها. فاكتفت بأن تراقبه بيأس والسيارة تسرع مجدداً، والمسافة بينهما تتزايد أكثر فأكثر. ثم استدارا حول منعطف في الطريق الداخلية للمنزل، ليختفي والدها والمنزل عن النظر.

إنها لوحدها الآن. أدركت هذا بخوف. تتجه في الاتجاه المعاكس للطريق التي ينبغي أن يسلكاها إلى الكنيسة، إلى زفافها. فانتابها القلق فعلاً.

***

٢ ـ الخطأ الأخير

ـ ماذا تظن نفسك تفعل حقاً؟

كان الاستسلام للذعر خطوة خاطئة وأقنعت فيليستي نفسها بهذا.. حسن جداً، ما من داع لكل هذا. هذا ليس كابوساً كما يبدو. لا.. فهناك ببساطة غلطة.. هذا كل شيء.

ـ قلت.. أوه.. ألا يمكنك أن تبطىء قليلاً؟

هل سمعها؟ بدت وضعية ظهره المنبسطة الصلبة منيعة لا تتأثر بشيء وكأنه جدار حجري. استدار وجهه بثبات في الاتجاه الذي يسافران إليه. وعيناه مسمرتان على الطريق أمامه، بطريقة يستحيل معها قراءة تعابيره أو الحكم على ما إذا كانت تنفذ إليه.

ـ أنت تسير في الاتجاه الخاطىء!

ما من رد.. ولا حتى رمشة عين باتجاهها، ولا استدارة من رأسه.. بل اشتدت قبضته على المقود، وراح محرك السيارة يهدر ثانية بينما تحركت إبرة ساعة السرعة.

تملكها الذعر، تمكنت فيليستي من فتح الزجاج قليلاً ومالت إلى الأمام ووجهها قريب منه، وفمها في الفتحة.

ـ قلت إنك ذاهب في الاتجاه الخطأ.

حاولت جعل كلماتها واضحة ومصممة قدر الإمكان، ونسيت أنه غير إنكليزي... من هو؟ إسباني؟ ربما لم يفهم ما قالته، ربما كانت الجمل القصيرة التي نطق بها أقصى إمكاناته في اللغة الإنكليزية.. ولو أنه تكلم

بسهولة ظاهرة.

ـ أصغِ إلي! أنت..

فنشتَ مذعورة في ذاكرتها عما تبقى من القليل القليل الذي تعرفه من اللغة الاسبانية، والتي التقطتها خلال عطلتها هناك منذ سنتين.

وتمكنت من أن تقول: «ڤـ.. ڤايا.. ايل كاميتو مالا».

وعرفت أن الجملة بعيدة جداً عن عالم الصرف والنحو، لكنها تعبّر على الأقل عما تعنيه.

وبشكل لا يُصدق، التوى الفم الجميل الشكل في ابتسامة شاحبة ساخرة لمحاولتها المتعثرة للترجمة.

وقال لها: «ڤوي ايل كوميتو كوريكتو».

ثم أضاف بسخرية: «أنا بالضبط على الطريق الصحيح، لكنه ليس الاتجاه الذي كنت تتوقينه اليوم».

وأضاف بحدة وهي لا تزال تفغر فمها في عدم تصديق وصدمة: «لكن، بغض النظر عن اتجاهنا، فلو كنت متعقلة، لجلست إلى الخلف وربطت حزام الأمان.. فحتى الآن، طريقة تصرفك ليست خطيرة فحسب، لكنها ضد القانون، و...».

ـ ضد القانون؟

عجزت فيليستي عن تصديق ما تسمع: «ضد القانون؟ أنت.. أنت.. تخطفني.. وتنزعج من خرق القانون حول حزام الأمان؟.. أنت.. أيها..».

بجهد يائس تمكنت من دفع النافذة الفاصلة وفتحها أكثر بقليل وأخذت تضربه على كتفه.

ـ أوقف السيارة في هذه اللحظة! قلت أوقفها!

حين لم يجب، بل ركّز عينيه القاتمتين على الطريق، لجأت إلى الطريقة الوحيدة التي تمكنت من التفكير فيها لتسترعي انتباهه. لم تهتم بسلامتها، بل مدت يدها لتمسك خصلة من الشعر الأسود القاتم الذي

www.liilas.com/vba

استطاعت أن تراه تحت القبعة وشدت بقوة.

ـ يا إلهي!

وللحظة ذعر مرعبة تمايلت السيارة بعنف. لكن بعد ثانية، استعاد السيطرة على نفسه، وعلى السيارة.

صاح وأسنانه مشدودة: «توقفي عن هذا! لا تكوني حمقاء لعينة يا امرأة! هل تريدين قتلنا سوية؟».

تمتمت فيليستي: «بالنسبة إليك.. لا تغريني بقتلك».

فكرت مرة ثانية.. وثالثة بما تفعل. فقد رمتها حركة السيارة إلى الجانب الآخر، وكدمت ذراعها. كما أن الثواني القليلة من الذعر الصرف الذي أحست به لمجرد التفكير بما يمكن أن يحدث لو أن هناك حركة سير على الطريق، كانت كفيلة بدفعها إلى إعادة التفكير بسرعة.

وغاصت في مقعدها، تكافح لتبدو هادئة بينما الأفكار تدور في داخلها كدوامة، وبذعر، في محاولة للوصول إلى تفسير ممكن لما يجري.

هل جن السائق تماماً؟ ما الذي يمكن أن يأمله نتيجة أعماله؟

وحاولت مرة أخرى: «اسمع.. أنت..».

قاومت لتجبر صوتها على أن يبدو صارماً ومليئاً بثقة لا تملكها.

ارتفعت العينان القاتمتان بسرعة، لتلتقيا بعينيها في المرآة الخلفية، ولتأسرا قلبها قبل العودة إلى تركيزهما على الطريق.

قال على حين غرة: «اسمي ريكو».

ريكو؟ تكون حمقاء لو صدقت هذا، إذ من الغباء أن يعطيها اسمه الحقيقي. وهي لا تظن أبداً أن ريكو هذا، أبله. فالكثير من الذكاء يبدو على وجهه. والكثير من المكر يتجلى في نظرته القاتمة بلون القهوة والتي يديرها نحوها.

لكن اسم ريكو يناسبه.. إنه اسم لمتشرد شرير، اسم لخارج عن القانون.. وتستطيع تخيله وهو يلعب دور قاطع طريق أو لص في فيلم

مغامرات مجنونة.

لكن هذا ليس فيلماً سينمائياً.. وليس حسب رأيها على الأقل مغامرة من أي نوع.

قالت: «إذن.. ريكو.. أعتقد أنك أسأت الفهم. لقد ارتكبت غلطة فظيعة».

ـ ما من غلطة.

ترافق التعليق الصريح مع هزة رأس صارمة: «أعرف تماماً ما أفعل».

ـ لكن.. أعتقد أنك أخطأت الشخص.

كان هذا هو التفسير الوحيد الذي توصلت إليه.

ـ ألست الآنسة فيليستي هاملتون؟

خدشت السخرية أعصابها المتوترة بوحشية.

ـ حسن جداً.. أجل.. وقلت لك هذا.. لكنك ما زلت مخطئاً.. أنا.. أنا لست ثرية.. ولا والدي كذلك.

وإلا لما اضطرت إلى الزواج من ادوارد.

ـ لست مهتماً بالمال.

ـ لكن.. لماذا إذن..

وتلاشى صوتها تماماً، وجف ليصبح نحيباً خافتاً وهي تفكر بالسبب الوحيد الآخر الممكن، ليخطفها هذا الرجل بهذه الطريقة. ملأت أفكار مخيفة رأسها حتى أنها شعرت باللون الأحمر يكاد يقفز من خديها، وبقلبها ينكمش ذعراً.

وصاحت: «أوقف هذه السيارة! أوقفها على الفور!».

لم تأمل أن يطيعها، لكنها أرادت أن تعرف إلى أي مدى هو مصمم على تجاهلها، وإلى أي مدى سيصل بعدم استجابته.

ـ قلت توقف!

لكن وفيما هي تتكلم برز أمل مفاجيء. فقد اقتربا من منعطف صعب في الطريق، لذا على السيارة أن تبطيء سيرها لتجتازه.. ولو استطاعت أن

تفتح الباب.. وبحذر، دفعت نفسها إلى الأمام، وشبكت أصابعها في مقبض الباب.

ـ إنه مقفل.

حطمت الكلمات آمالها في جزء من الثانية.. وقطعتها تماماً. توجهت نظرتها مرة أخرى إلى المرآة لتلتقي تلك النظرة بإحساس رعب مروع، وأكمل يساعدها على الفهم: «قفل مركزي».

وأشار بيده إلى زر على الباب إلى جانبه: «تعجزين عن الخروج إلى أن أسمح لك بذلك».

عرفت أن هذه حماقة، لكنها تجاهلت كلامه لثانية. فهي مضطرة، لا تستطيع الاستسلام دون قتال.

لكن، ومهما شدت بقوة، وتلوت، بقيت مسكة الباب ثابتة لا تتحرك بعناد. وأخيراً، كان عليها أن تتخلى عن الكفاح الذي لا جدوى منه، وتعود لتجلس إلى الخلف في مقعدها.

ـ من الأفضل لك أن تتوقفي عن هذا وتسهّلي الأمور على نفسك.

بدا صوته لطيفاً تقريباً، بشكل يثير الاضطراب. وتمكن فعلاً من أن يدس فيه نبرة اهتمام خفيفة.. نبرة لم تشك أبداً بأنها صادقة.

قال: «أمامنا رحلة طويلة.. وستسبين لنفسك المزيد من الكرب إذا استمريت هكذا».

ـ رحلة طويلة؟ إلى أين نحن ذاهبان؟

لكن محاولتها لتبدو جاهلة، بريئة لم تمر بسهولة كما أملت. بل أكسبتها نظرة أخرى نصفها ساخر متسلٍ، ونصفها مؤنب لأنها ظنت بأنه سيصدقها.

قال من فوق كتفه: «ستعرفين حين نصل إلى هناك.. لذا، لِمَ لا تجلسين إلى الخلف وتتمتعين بالرحلة؟».

ـ التمتع بالرحلة هو أبعد شيء عن تفكيري.

ـ حسن جداً، أجل..

وأكمل: «لكنك ستكونين أكثر راحة، وسلامة، لو جلست إلى الخلف وربطت حزام الأمان، وحاولت الاسترخاء».

وهو يتكلم، سلك طريقاً ملتوية، وعند قراءتها للوحة الطريق، رأت فيليستي أنهما يتجهان نحو الطريق العام الذي يقود بعيداً عن موطنها ومباشرة إلى لندن.

قالت بحدة: «أنت تخاطر.. أليس كذلك؟ استطعت أن أقرأ، ورأيت إلى أين تتجه».

كان رده الوحيد هزة كتف أخرى غير مبالية. فهل هو واثق حقاً أنه لا يهتم إذا عرفت إلى أين يتجه؟

ـ ألا يقلقك هذا؟

رد متشدقاً: «وهل يجب أن يقلقني؟».

وكأنما ليبرز مدى قلة اهتمامه، خلع قبعة السائق ورماها على المقعد بجانبه، ومرر يداً سمراء قاتمة في شعره الأسود اللماع الذي كشف عنه. ثم رفع عينيه لينظر إلى المرآة مجدداً. وابتسم ابتسامة عريضة خبيثة توجهت مباشرة إلى عينيها الرماديتين المراقبتين.

أخذ قلب فيليستي ينبض بجنون، ويضرب بشدة على عظام صدرها. وعضت بحدة شفتها السفلى، في محاولة لمنع الصرخة المصدومة التي كادت تفلت منها.

هذا غير صحيح، هذا غير عادل! رجل مثل ريكو هذا.. رجل اختطفها لأسباب لا يعرفها أحد، واقتحم حياتها وقلبها رأساً على عقب. يجب على الأقل أن يتلفّت بارتياب، وبطريقة تكشف عن سواد قلبه الداخل. لكن الأمر لم يصحّ في هذه الحالة.

كانت ترى جزءاً صغيراً من وجهه معكوساً في المرآة، فبدا ذا طلة بهية وقوية صدمتها كضربة في معدتها.

اجتمعت البشرة الناعمة الزيتونية اللون، والعينان القاتمتان، والش

اللامع الأسود، إضافة إلى الخدين المنحوتين بقوة، والرموش الكثيفة، وذلك الفم القوي، لتكوّن أجمل صورة مبسطة وقوية، لجمال ذكوري صرف، لم ترَ مثله من قبل.

ولم تستطع إبعاد نظرتها عنه، بل حدقت إليه مسمّرة إلى أن نظر ريكو إليها مرة أخرى، ولاحظ نظرتها المصدومة.. أحست بالخجل لأنه رآها تراقبه، وأشاحت بوجهها بعيداً بحدة، وأطرقت تنظر إلى يديها بحرج مؤلم.

ـ عليك حقاً أن تربطي حزام الأمان.

أوضحت نبرة صوته أنه من الأفضل لها أن تطيع، وأكمل: «سنعلق في زحمة السير على الطريق الرئيسية قريباً. أعلم أنك مستعدة لتعريض حياتك للخطر بمخالفة القانون، أما أنا فأفضّل أن تكوني متعقلة».

«أفضل أن تكوني متعقلة» أيعني هذا أنه مهما كانت خططه بالنسبة لها، فهي لا تشمل الأذى الفعلي؟ لا تستطيع أن تعرف.. لكن عوض أن تجادله، مدت يدها إلى حزام الأمان ووضعته بحزم في القفل. أحست بارتياح لأنها وجدت يديها ثابتتين كما تمنت، لا تكشفان شيئاً عن اضطرابها الداخلي.

سألت وهو يدير السيارة إلى الطريق الموصلة إلى الطريق الرئيسية: «ريكو ماذا؟».

زادت السيارة من سرعتها ولم يبذل أي جهد ليعدّل من هذه السرعة.

ـ أعتقد أن لك اسم عائلة؟

ـ ريكو وحدها تكفي.

كان اهتمامه منصباً على الطريق وهو يرد، ويدير السيارة ببراعة في زحمة السير.

ـ سأعرف، وتعرف أنت هذا. ادوارد سيقول لي.

لمحت بسرعة لوحة إلى جانب الطريق وهي تتكلم، وبالكاد تسنت لها الفرصة لتقرأ ما كان مكتوباً عليها. وصدمها إلهام مفاجيء، ليعطيها

فكرة. تابعت: «في الواقع أنا مندهشة من اعتقادك بأنك ستنفذ بعملك هذا. يجب أن تعرف أنني سأبلغ عنك وأنني سأقول للسيد ڤيتابيلز».

كانت تتكلم لتملأ الصمت، ولتلهيه بينما تعيد التفكير بالخطة التي خطرت لها للتوّ، بالخيارات المتاحة لها، وتحاول أن تقرر ما إذا كانت ستنجح.

لم تعرف ما إذا كان قد سمعها، فهو لم يعطها أي دليل ولم يبدِ أيّ رد فعل، بل بقي صامتاً بوجه متحجر وكأنه وجه تمثال منحوت من رخام.

ـ حتى ولو كان هذا مجرد مزاح ثقيل، فهو لن يقبل مثل هذا التصرف من أحد موظفيه.. وستخسر عملك.

شيء ما فضحه هذه المرة. نظرة جانبية، ورمشة من رموشه الرائعة الجمال. وفجأة استوعبت الحقيقة بإحساس مرتاع وصل حتى أعماق معدتها.

وسألت بصوت أجوف: «إنه ليس عملاً.. أليس كذلك؟ أعني، ليس عملك. أنت لا تعمل لحساب ادوارد ڤيتابيلز.. أليس كذلك؟».

ـ أفضل الزحف على هذه الطريق على يدي وركبتي.

العنف الحاقد المتوحش في نبرة صوته، لم يترك لها مجالاً للشك بأنه يعني ما يقول.. وسرت رجفة باردة على عمودها الفقري، عندما أدركت أن هذا الإعلان الشرس يخفي بغضاً قوياً لا بل كراهية.

ـ إذن، هذا يتعلق بادوارد.. وليس بي؟

ولا يتعلق بوالدها على ما يبدو. وهذا شيء مريح.. فعلى أي حال المشكلة التي أوقع فيها جو هاملتون نفسه مؤخراً، لا تتعلق بهذا الرجل الشرير.

ـ وهل يعني هذا أنك لن...؟

ولم تستطع إكمال الجملة إذ خطرت لها فكرة أخرى محت خطوط أفكارها الأولى.

قال ريكو، وقد أساء تفسير صمتها: «لا أنوي أن أؤذيك، إذا كان هـ

ما تعنيه».

لا.. لكنه يستطيع تدمير حياتها بكل سهولة دون أن يلمسها.. فإذا لم تظهر في الكاتدرائية، أو على الأقل، إذا لم يعرف ادوارد أن غيابها لم يكن بخيارها، فسوف يصب انتقامه على رأس والدها، وستكشف عندئذ جرائم جو وتكون قد عرّضت نفسها لكل هذا من أجل لا شيء.

وما سيكون التأثير على أمها؟ لا، لن تستطيع احتمال التفكير به.

أعلن ظهور لوحة أخرى، عن الاقتراب من مركز خدمة على الطريق العام، وذكّرها بخطتها السابقة قبل لحظات.. عليها أن تتحرك الآن، وإلا لن تنجح أبداً.

أعلنت: «أنا عطشانة! الطقس حار جداً.. أنا حقاً بحاجة إلى ما أشربه».

الطريقة التي تقطّع بها صوتها أعطت الكلمات قوة إقناع.. لكنه أجاب: «لو نظرت أمامك، فهناك خزانة.. إنها في الواقع براد صغير فيه زجاجات بلاستيكية من المياه المعدنية».

ـ أوه لكن..

ـ وهل ظننت حقاً أنني قد أتوقف في المحطة وأتركك تخرجين.. هل ظننت هذا؟

وبشكل مغيظ، بدا أن ريكو قادر على قراءة أفكارها، وأكمل: «ستشربين الماء يا حبيبة قلبي.. أو لا شيء».

ـ أنا لست حبيبة قلبك.. ولا أنوي شرب شيء تقدمه لي.

رد ريكو بقسوة باردة: «إذن يجب أن تبقي عطشانة. لقد قلت لك إنني لا أنوي أذيتك».

ـ ومن المفترض أن أصدقك؟

أصبح ادّعاؤها العطش حقيقة.. كانت الشمس تنصب على السيارة، وأيقنت أن أعصابها المشدودة منعتها من تناول أيّ طعام أو شراب إلا القليل القليل، طيلة الفترة الصباحية.. ومجرد التفكير بماء بارد كان

إغراء وجدت صعوبة في مقاومته.

ـ بإمكانك وضع شيء لي في الماء!

كانت تنهيدته تحفة فنية للصبر النافد ملؤها السخط.

ـ لقد أعطيتك كلمتي..

ـ كلمة مختطف! متوحش.. قاطع طريق؟

رأته في المرآة يستدير، لمجرد ثانية: «ما رأيك في أن أشرب من الماء قليلاً».

كان هذا عرضاً مغرياً، فهي عطشى فعلاً. ولا بد أنه رأى الشك على وجهها، ومدى ضعفها، لأنه أعطى فجأة إشارة ضوئية ودخل إلى فسحة إلى جانب الطريق مخففاً سرعة السيارة.

ـ أعطني الماء.

يمكنها أن تستخدم الزجاجة كسلاح. وأقنعت فيليستي نفسها بهذ وهي تفتح البراد.. تستطيع ضرب ريكو على رأسه، أو خضّها بقوة إلى أن تفور المياه المعدنية، وتنفجر في وجهه ما إن يفتحها.

لكن، في الوقت الذي مرت فيه الفكرة بخاطرها، أعادت النظر فيه بسرعة. فلو أعاقت ريكو، ولو لوقت قصير، فسيبقى إلى الجانب الآخ من الفاصل الزجاجي. وجهاز التحكم في القفل المركزي موجود إلى جانبه.. وتشك كثيراً في أن تستطيع، حتى لو فتحت الحاجز إلى أقصى مدى أن تحشر نفسها لتمر من الفتحة إلى مقدمة السيارة.

لم تجرؤ على المخاطرة. ماذا لو أغضبته دون أن تجعله عاجزاً عن أذيتها.. صحيح أنه وعدها بألا يؤذيها، لكن هذا لا يعني أن تخاطر ف تحديه كثيراً.

ـ الماء فيليستي.

استدار ريكو في مقعده حتى أصبح يواجهها، وبدت نبرة إنذار قاتم في صوته.

ردت فيليستي: «وهل قلت لك إنك تستطيع استخدام اسم

الأول؟».

عرفت أنها تبدو تافهة، فهي تستخدم الشكوى لتختبىء خلفها، ولتخفي الإحباط الذي تشعر به لعدم قدرتها على النيل منه بطريقة أخرى.

صحح ريكو كلامه بلباقة أزعجتها أكثر: «سنيوريتا هاملتون».

- أوه.. هاك.. خذ ماءك اللعين!

ومدت القنينة إليه بغضب، محاولة تجنب السخرية البادية في عينيه القاتمتين.

لكن عدم النظر إلى عينيه فرض عليها أن تنظر إلى مكان آخر. أرعبتها الطريقة التي حدّقت فيها إلى الأسفل نحو خطوط عنقه السمراء فوق ياقة قميصه. أما حركة عضلاته وهو يرجع رأسه إلى الوراء ليبتلع الماء، فجعلتها مسمرة، بحيث لم تستطع إجبار نفسها على النظر بعيداً.. ولو أنها حاولت جاهدة.

حرارة لا دخل بها بحرارة الشمس في الخارج جففت فمها وحلقها، فاستحالا رمالاً جافة. وأحست أن النار تلتهم جسمها وسيلزمها أكثر بكثير من بعض جرعات الماء لتنطفىء.

أوقفي هذا! قالت لنفسها ساخطة. وأجبرت عينيها على الإغماض وشدتهما بقوة. يجب أن تتوقف عن التفكير بهذه الطريقة.

- هاك.

مد ريكو يده بالزجاجة إليها ثانية، فانتزعتها منه. لكن الطريقة التي يراقبها بها، جعلتها تتمرد وتمسح فم الزجاجة بعناية مبالغ فيها، فارتسم العبوس على وجهه.

وابتلعت دون تفكير كل ما تبقى في الزجاجة، وهي ممتنة لأن المياه خففت الجفاف الذي يعذبها. وهي تشرب، أعاد ريكو السيارة إلى وضعية الانطلاق وعاد إلى الطريق العام بنعومة، ونظر إليها بسرعة وهي تنهد بارتياح.

- أفضل حالاً؟

- بكثير.. شكراً لك.

ذهلت حقاً لما يمكن لشربة ماء أن تفعله. فقد أحست بانتع
كامل، وارتياح أكبر.. وأعطاها التوقف القصير الوقت الكافي لج
شتات نفسها، وأفكارها.. في الواقع، لو علمت إلى أين هما متجهي
لاستطاعت ربما أن تتغلب على هذا الرجل بالحيلة والدهاء.

رفع الإحساس بالانتعاش معنوياتها، وتراجعت في مقعدها، تس
إلى أن تبدو مسترخية، على أمل أن تلهيه، وتجعله يظن أنها خمدت. و
خفّ الإحساس الخانق بالذعر حتماً.

سألته بكبرياء مصطنعة: «أنت لا تجيد هذا.. أليس كذلك؟ أعت
أنك لم تفعل هذا من قبل».

رد ريكو بجفاء: «وأنت على ما أعتقد خبيرة».

وأعطى إشارة الانعطاف مجدداً، وخرج إلى طريق فرعية.

أجابت: «أوه لست بحاجة لأن تكون خبيراً لتعرف أنك ارتكبت بض
أخطاء رئيسية.. هذا أولاً..».

رفعت يدها اليسرى تعد النقاط على أصابعها وهي تتكلم: «لق
تركتني أعرف الكثير.. اسمك، مثلاً، هذا إذا كان هذا اسمك الحقيق
حقاً».

- ربما لأنني أردت أن تعرفي بالضبط من أنا.

كان هذا شيئاً لم يخطر ببال فيليستي، لكن الآن وقد ذكره، اضطرت
للتفكير فيه. ويا للعجب! لماذا يريدها أن تعرف من هو.. لم يبدُ لها هذ
منطقياً أبداً.

وعدّت نقطة أخرى، وهي تحاول إخفاء ارتباكها: «وتركتني أرى
وجهك».

- وماذا كنت تتوقعين؟ أن أرتدي قناعاً، وأطيح بك عن قدميك،
وأحملك بعيداً على كتفي؟ أعتقد أن رجال شرطتكم البريطانيين الأكفاء
كانوا سيلاحظون هذا لو حدث.

اضطرت فيليستي للاعتراف بأن هذا أمر ممكن. لكن ما كانت تجده مشكلة هو الصور المزعجة التي تطوف في رأسها لمجرد التفكير بأن يطاح بها عن قدميها، بين ذراعي ريكو. ألقت نظرة سريعة على الأصابع القوية التي تقود السيارة بكل براعة وسهولة، جعلتها ترتجف.

وسألها ريكو: «إذن، ما هي الأخطاء الأخرى التي ارتكبتها؟».

عدا الخطأ الأكثر وضوحاً، هو أنه وجد المرأة التي خطفها.. امرأة موعودة لشخص آخر.. جذابة جداً. ولو أنه عرف أن فيليستي هاملتون هي التي سيأخذها رهينة، لساورته أفكار أخرى حول الأمر كله؟

قالت: «حين يخطر ببالي أكثر من هذا سأقول لك».

لم تكن تنوي أن تقول له الأمر الأخير.. الغلطة الرئيسية التي ارتكبها هي أنه تركها تجلس مستقيمة، مستيقظة تماماً، وصافية العينين، في مؤخرة السيارة تراقب كل لوحة على الطريق تذكر بالطريق الذي يسلكانه، ولا بد من توقفهما في وقت ما. ثم، وبطريقة ما، ولا يهم كيف، ستجد وسيلة لتتصل بعائلتها لتدعهم يعرفون أين هي.

مرت إلى يمينها سيارة مسرعة، ونظرت امرأة شابة إلى الرولز وهي تمر بها. شيء ما في تلك النظرة والتعبير على وجه المرأة جعلا فيليستي تضحك بصوت منخفض لم تسيطر عليه.

ـ ما بك الآن؟

ـ أدركت لتوي ماذا يرى الناس.

بدت الفكرة مسلية جداً، ووضعت بسرعة يديها على فمها لتمنع نوبة ضحك جديدة.

وهزت رأسها بتساؤل مرح وهي لا تزال تضحك.

ـ أعني.. كيف يبدو هذا؟ هنا أنت.. تقود على الطريق العام، ولا وجود لكنيسة أو معبد في أي مكان يقع عليه النظر.. وأنا.. أنا.. هنا في المؤخرة، مرتبة متبرجة في ثوب العرس.

جعل صمته والنظرة السريعة من عينيه السوداوين إلى المرآة لتفحصها

عن كثب، قلبها ينكمش في موجة ذعر مفاجئة.

ماذا دهاها؟ هذا الرجل اختطفها! وما من شيء مضحك. لا شيء مسلٍ أبداً، في وضعها هذا.. يجب أن تكون خائفة.. صحيح أنها متوترة الأعصاب.. لكن..

وهددتها نوبة ضحك أخرى.

ـ وهذه غلطة أخرى ارتكبتها.. إنها، واحد، اثنان..

بدا لها أن عينيها غامتا، والإصبع الذي حاولت أن تعده فقد الاتصال باليد الأخرى تماماً.

ـ أعني.. تصور اختطاف عروس!

وتوقف الضحك فجأة، وتحول إلى تثاؤب، وأحست بجفنيها ثقيلين، وبقدر ما حاولت، لم تستطع التركيز أبداً. فقد راح العالم يفقد توازنه بطريقة غريبة جداً.

وصدر عن الرجل الذي يجلس في مقدمة السيارة أمر: «استلقي فيليستي.. استلقي على الفور.. صدقيني، ستشعرين أنك أفضل حالاً».

ـ استلقي..

وأطبقت عيناها. وسقط رأسها، كزهرة ذابلة، ثم ارتفع مجدداً. وفجأة، استدارت إليه عينان متسعتان ناعستان، وسألته بعتاب: «ماذا فعلت بي؟».

ـ استسلمي، ولا تحاولي المقاومة.. سيكون هذا أسهل عليك.

لا تقاومي!

كان قلبها يقفز بجنون مثل عصفور صغير وقع في الأسر وراح يضرب بجناحيه جوانب القفص. وحاولت إجبار نفسها على فتح عينيها، وتمكنت من هذا قليلاً. لكن جفنيها كانا ثقيلين جداً.

ـ نامي يا صغيرة.

الصوت المنخفض الأجش كان كل ما استطاعت أن تركز عليه. وكان يختلط مع هدير محرك السيارة، ليرمي سحراً ناعماً على أحاسيسها.

- نامي..

لكنها لا تستطيع أن تنام.. عليها أن تبقى مستيقظة.

كان الجهد كبيراً.. وبتنهيدة خفيفة توقفت عن المقاومة، وارتمت إلى الوراء على المقعد ونامت.

شد ريكو وهو يراقبها يديه بقوة على المقود إلى أن ابيضّت عقد أصابعه وأخذ يشتم بلغة بلاده.

حبذا لو أن هناك طريقة أخرى.. لكنه مضطر لهذا. لقد أجبرته على ذلك، هي وذلك الخطيب.. ادوارد ڤينابيلز.

لمعت عيناه السوداوان بالغضب، واشتدت كل عضلة فيه وهو يضرب قبضته على المقود.. اللعنة على ادوارد ڤينابيلز! اللعنة عليه.. لريكو دين على ذلك القذر للطريقة التي عامل بها ماريا.. والآن هو مدين له بهذا..

* * *

٣ - مخالب القطة الصغيرة

- آنسة هاملتون.. فيليستي..

لقد سمعت هذا الصوت من قبل، ربما في أحلامها. فكرت فيليستي بهذا وهي تتحرك على مضض.. إنه صوت من النوع الذي يتواجد في الأحلام، منخفض، ناعم، وله لكنة مثيرة.. وله طريقة لتحويل اسمها من كلمة مؤلفة من أحرف بسيطة، إلى بيت شعر، لمجرد أن يلفظه.

كان الصوت في أحلامها صوت رجل الخيال. وهو رجل من النوع الذي لم تقابله أبداً في الحياة الحقيقية ولن تقابل مثله لأنها يجب أن تستيقظ الآن.. وأن تواجه الواقع.. فهي ستتزوج اليوم مرغمة من ادوارد ڤينابيلز.. إما هذا وإما أن يدخل والدها السجن لمدة طويلة.

لكن ربما استطاعت أن تتدبر بضع لحظات أخرى في عالم الأحلام، وتحاول البقاء في الفراش مجدداً.

- ريكو.. غاتينا.. استيقظي.

بدت كالقطة الصغيرة كما ناداها، وهي مستلقية هناك، متكورة، ناعمة وناعسة، ورأسها ينوسد يديها. فكر ريكو بأنها تبدو رقيقة ضعيفة مما أزعج ضميره.

لكنه لا يستطيع تحمل الضمير، ليس بالنسبة إليها. فمستقبل ماريا، وطفلها الذي لم يولد بعد يتوقف على أن يبقى قوياً ويتعامل مع هذا كما وعد.

لقد قالت له ماريا: «تستطيع فعل هذا من أجلي.. أليس كذلك

ريكو؟».

أخذ صوت أخته غير الشقيقة يتردد في رأسه بوضوح حتى كاد يراها ووجهها المليء بالدموع أمام عينيه، ويشعر بيديها تشدان على يديه وهي تتوسل إليه.

ـ تستطيع رؤية إدي.. قل له إنه لا يمكن أن يكمل هذا الزواج، ولا يستطيع أن يتزوج هذه المرأة.. فيليستي هاملتون.

جعلت الأمر يبدو سهلاً، وواضحاً. لأن المسألة بالنسبة إليها صريحة، فهي تريد هذا، وهي تحصل عادة على ما تريده. لكن ثبت هذه المرة، أن ما أرادته ماريا يصعب الحصول عليه.

ولهذا ها هو الآن، مع امرأة نصف واعية بين يديه، وموقف يخرج عن سيطرته بسرعة.

ـ فيليستي.

في مؤخرة السيارة، تحركت فيليستي هاملتون قليلاً، وقطبت بعبوس خفيف، ثم تمتمت شيئاً في منامها. رفع الخمار الأبيض الناعم عن وجهها، وتحرك إلى الأمام ليزيله جانباً ثم تمنى لو أنه لم يفعل.

ساوره الشك في أن ينسى يوماً الصدمة التي ضربته في صدره حين خرجت من منزلها، منذ بضع ساعات.. لم يكن يتوقع أن تكون فيليستي هاملتون التي وصفها له كل من ماريا والتحري الخاص الذي عينه لهذه القضية، كما بدت أبداً.

ليس هذه المخلوقة النحيلة الرقيقة التي صرعه جمالها الناعم وأفقده توازنه، فتزاحمت أفكاره في رأسه. وفي النهاية لم يتمكن من أن يفعل شيئاً سوى أن يجبر نفسه على التركيز على الخطة التي تدبرها، ولا شيء غيرها.

كانت الصورة التي رسمتها ماريا تبرز شخصاً أكثر قوة. امرأة تعرف ماذا تريد من الحياة، وتتقدم إليه. متجاهلة أي إنسان يقف في الطريق. وصرّح التحري قائلاً: كما الأب كذلك الابنة.

فقد قيل له: «إنها تذهب مباشرة من عملها إلى ذلك النادي الليلي، كل ليلة سيد ڤاليرون.. ولا تعود إلى منزلها قبل الفجر».

لكن هذه المرأة لا تشبه أبداً الصورة التي رسمها لها في رأسه.. وبالطبع قد تكون الصورة هي الحقيقة من الداخل، والمظهر الخارجي هو المختلف. لكن، إذا كان هذا صحيحاً فليس من حقها أن تكون جميلة هكذا وبشكل مخادع.. فهذا يعقد الأمور كثيراً.

ـ آنسة.. فيليستي..

عاد الصوت إلى أحلامها. لكن وهي تتحرك مرة أخرى وجدت أن فراشها لم يكن مريحاً كالعادة. فقد أحست بأنه قاس وضيق، وهي مكورة فيه بغير ارتياح، وعالقة في شيء ما، شيء يخشخش، ويعيق حركتها، مثل باردات من الشباك و..

وأجفلتها الصدمة فجلست مستيقظة، راح قلبها يضرب بقوة بين ضلوعها.

لم يكن هذا حلماً. لقد نامت ونسيت أين هي. لكنها عادت الآن بسرعة إلى الواقع.

ـ أنت!

وانفتحت عيناها، واسعتان سوداوتان، وانجلت بقايا النوم الذي غلفها بسرعة وهي تحدق غير واثقة في وجهه: «ماذا فعلت بي؟».

أحست أنها تعرضت للخيانة.. لقد وعد ألا يؤذيها.. وبينما الكلمات تغادر فمه الكاذب، كان يحنث بوعده. لكن ماذا توقعت من رجل مستعد لارتكاب جريمة اختطاف كي ينتقم من أحدهم؟

ـ لقد خدرتني!

ـ أخف نوع من المخدر فقط.

لم يكشف الوجه الوسيم عن أي شعور بالذنب أو الندم، ونظرت العينان القاتمتان بلون الشوكولا إليها بعدم اكتراث بارد.

لكن ماذا توقعت؟ الشفقة أو القلق؟ ستكون عمياء، وحمقاء لمجرد

www.liilas.com

التفكير بمثل هذا الشعور من المتوحش البارد القلب.

وأكمل: «خطر لي أنه قد يجعلك تسترخين، ولم أتوقع أن يكون له تأثير كهذا عليك».

فكرت فيليستي بخشونة: لا.. كيف عساه يعرف أنه وبعد أسابيع من الضغط، وعدم حصولها على ليلة نوم واحدة منذ فترة، تكون أخف أنواع المنوِّمات، كفيلة بأن تصرعها. فقد كانت متعبة جداً.

وأكمل: «لم أكن أتوقع أن ينتهي بي الأمر و«الجميلة النائمة» بين يدي».

كان يبتسم فعلاً.. محاولاً جعل ما جرى يبدو كنكتة! ولو لم تكن تعرف الحقيقة، لظنت أنه يحاول العبث معها.. لكنها تعلمت درسها بسرعة. ولن تثق بهذا الوحش البارد القلب أبداً، حتى ولو أشرقت العينان البنيتان العميقتان، بنور ناعم غير متوقع، وبدا الفم الجميل مغرياً حين يتكور..

بمَ كانت تفكر؟ بسرعة أقفلت الطريق الخطيرة التي فتحتها أفكارها، ورسمت على وجهها نظرة غاضبة.

ـ أنا واثقة من أنك خططت لكل حركة بدقة عسكرية، لكنك لن تنفذ بفعلتك.. وتعرف هذا!

ـ لا؟

ارتفع حاجب أسود بسخرية متسائلة: «ألا تظن هذا؟».

ـ أنا لا أعرف هذا!

قاومت فيليستي وجلست نصف جلسة لأنها تشعر بضعف خطير وهي مستلقية بينما يقف هو مشرفاً عليها، ووجهه في ظل جزئي حجب الشمس.

ـ أولاً، هناك قوانين تمنع هذا التصرف.. وثانياً من المؤكد أن والدي قد أبلغ الشرطة الآن.. فأنت لم تخبىء رقم سيارتك، و..

أجفلها شيء ما في وجهه، رمشة استجابة صغيرة في أعماق عينيه

المذهلتين.

وسألت: «ما الأمر؟ ماذا فعلت؟».

لكن، وبينما كان السؤال المتلهف يغادر شفتيها، تضاءل لهيب الخوف والارتباك الذي غشى أفكارها في لحظات صحوها. وبدأت عيناها بالتركيز جيداً، وراح دماغها يستوعب المزيد من الانطباعات المفصلة عما يحيط بها.

صحيح أنها لا تزال في السيارة، وما زالت في المقعد الخلفي لسيارة ضخمة وفاخرة.. لكنها الآن، وهي تنظر عن كثب، وعت بعض الفروقات بين هذه السيارة وسيارة الرولز رويس التي نامت فيها أصلاً.

كان الجلد الناعم بلون غزالي فاتح، وأصبح الآن بلون أسود. ولم يعد هناك زجاج فاصل بينها وبين مقعد السائق حيث جلس ريكو، وعندما رفعت نفسها لتستقيم تماماً، لم ترَ الزينة الفضية للرولز الأصلية بل خطوط سوداء لماعة لسيارة مختلفة تماماً.

ـ هذه ليست سيارتك!

رد ريكو دون أن يتأثر: «تصحيح.. هذه سيارتي حقاً.. ملكي الشخصي، ولم تكن الرولز هكذا.. بل كانت السيارة التي استأجرها ڤيتابيلز لك. لكن كان من السهل الحصول عليها لاستخدامي الخاص.. في حين سُر سائقك الأصلي للحصول على يوم راحة، خاصة بعد أن كسب مكافأة كبيرة في الوقت ذاته».

فكرت فيليستي.. أراهن على هذا. وقاومت موجة بؤس خانقة.. تذكرت مدى حماقتها لأنها قالت له إن عملية الاختطاف هذه تفتقر إلى الكفاءة وراحت تتذكر ما قالته بتفصيل مرعب. كيف كانت بمثل هذا التهور.. وحمقاء بجنون؟ حتى أنها ضحكت منه!

ـ أنت..

جعل الرعب الأسود صوتها يتهدج، وتراجعت نحو الباب الأبعد. لتبتعد عنه قدر المستطاع.

ـ كيف . . كيف أخرجتني من الرولز إلى هذه؟

ازدادت الابتسامة الخفيفة اتساعاً وتحولت إلى ضحكة خبيثة شريرة: «أوليس هذا واضحاً «غاتيتا»؟ لقد حملتك».

أطبقت حنجرتها للفكرة، وانقلبت معدتها. جعلتها الصورة التي فكرت فيها ترتجف كثيراً. كانت بين ذراعيه، وجسمها مسترخٍ وتحت رحمته بالكامل، وعيناها مغمضتان، وكل دفاعاتها معطلة.

ـ وكيف تجرأت؟

ولراحتها، أنجدها الغضب، ودفعت حرارة الغضب وقوته الخوف بعيداً.

ـ كيف تجرؤ على أن تلمسني؟

وارتفع صوتها عالياً متوتراً، ولمعت عيناها بالنار تحدياً: «لم يكن لك الحق أبداً! ولو فعلت هذا مرة أخرى، سأقتلك!».

وبدا أن ردة فعلها جعلته يتسلى، فازداد غضبها ودفعتها ابتسامته إلى الجنون.

وتمتم بسخرية حريرية: «إذن، للقطة الصغيرة مخالب! أستطيع أن أرى أنني سأضطر للدفاع عن نفسي».

جعلها الازدراء وعدم الاكتراث بتهديدها، تشد يديها بقوة على فخذيها، تقاوم استخدامهما على ذلك الوجه الوسيم المتعجرف.

قالت بشراسة: «أوه . . اذهب إلى الجحيم!».

رد بنعومة: «بكل إرادتي. لكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير بأنك ستكونين أكثر ارتياحاً في الداخل. لن تستطيعي البقاء في السيارة طيلة الليل . . فأنا أعتقد أن الطقس على وشك أن يتغير».

أكدت نظرة سريعة إلى السماء حقيقة كلامه. فقد حجبت الشمس الساطعة التي بدت في وقت مبكر من النهار غيمة كثيفة تزداد كثافة وسواداً مع مرور الدقائق. لكن الأمر أسوأ من هذا، فالبعض من كثافة الشمس قد تلاشى، مما أكد لها أن الأمسية تقترب، فلكم من الوقت غابت عن الوعي

وهما في الطريق؟ وما المسافة التي قطعاها في هذا الوقت . . وإلى أين؟

ـ أنا واثق من أنك تشعرين بالجوع. ولو دخلت المنزل . .

ـ لا.

كانت تنهيدته مزيجاً من الإحباط والاستسلام.

ـ فيليستي . . لا يمكنك البقاء في الخارج هنا.

ـ أستطيع فعل ما أريد! واسمي الآنسة هاملتون!

تباً له، إنه يضحك منها. كان صوت تسليته الناعم يضيف الوقود إلى نار السخط المشتعلة في داخلها.

ـ لا تكوني حمقاء «غاتيتا» . . لا بد أنك متصلبة وغير مرتاحة. وتحتاجين إلى شيء تأكلينه وتشربينه، تعالي معي . .

لسوء الحظ أحست بالإغراء، وبدت اليد السمراء القوية التي مدها لها إيماءة صداقة ومساعدة، لكنها صدّقت ذلك من قبل، وهي لا تنوي أن تكرر ما حدث.

ـ سنيوريتا.

كشفت حدة صوته عن أنها تختبر صبره.

ـ أنت لا تسهّلين هذا على أيّ منا. ولو دخلت إلى الداخل، لاستطعنا تدبير هذا الوضع بطريقة متمدنة أكثر.

ـ أنا لا أريد أن أسهّل الأمور عليك! وبصراحة، كلمة التمدن هي آخر كلمة يمكن أن أستخدمها في وصفك! لا شيء على وجه الأرض يمكن أن يقنعني بوضع قدمي داخل المنزل . .

ـ حتى ولو وعدتك بأن أتركك تتصلين بعائلتك؟

ـ أتصل؟

وفجأة، تخلت عن كل رغبة في القتال وعادت ضعيفة.

ـ وهل ستتركني أفعل هذا؟

تحرك الرأس الأسود المتعجرف بهزة سريعة موافقة.

ـ إذا دخلت إلى الداخل فقط.

كانت نبرته مغرية، وبتمتمة حريرية. إنه الصوت الذي استخدمته الأفعى حتماً لإغواء حواء في جنة عدن، ووجدت فيليستي نفسها تضعف بشكل خطير.

كان شوقها للحديث مع أبويها، ولسماع صوت ودود وسط هذا الكابوس، غامراً، فهي لم تشعر من قبل بمثل هذه الوحدة، أو الخوف.. ولا حتى في اليوم الذي اكتشفت فيه الورطة التي تورّطها والدها، والأخطار التي سبّبها لعائلته.

- سيكون هذا أول شيء تفعلينه ما إن تصبحي داخل المنزل. ستتصلين بوالديك، وتطمئنهما أنك بصحة جيدة، وأنا واثق من أنهما سيكونان سعيدين بسماع صوتك.

لا بد أنهما سيفقدان صوابهما من القلق. وتسارعت الدموع الحارة إلى عيني فيليستي لمجرد التفكير بهذا.

- لن تخدعني بهذا؟

شكّل بريق الدموع في العينين الرماديتين الضربة القاضية على ريكو.. فما من شيء عجز يوماً عن التعامل معه، إلا دموع امرأة. لقد بكت ماريا على كتفه كثيراً حين اكتشفت أمر زواج ادوارد قيتابيلز، ولهذا السبب هو هنا الآن. ورؤية دموع هذه المرأة هددته، لأنه يعرف أنه السبب في هذا.

قال بصوت أجش: «ثقي بي في هذا الأمر».

وامتدت اليد الكبيرة القوية نحوها. وهذه المرة، وبعد لحظة تردد، وضعت يدها في يده. كانت الطريقة التي اختفت فيها أصابعها وهو يطوي أصابعه حولها صادمة، فقد ابتلعت قوة قبضته السمراء بشرتها الشاحبة.

وشجعها: «تعالي «بيليزا» تعالي معي».

ببطء وحذر تركت نفسها تنجر معه منزلقة من فوق الجلد الناعم للمقعد. وكانت تقريباً قد خرجت من السيارة حين خطرت لها فكرة جديدة، ولمعت في دماغها كالبرق، حتى أنها توقفت للحظة واحدى

قدميها بالكاد تمتد إلى الأرض، وهي تفكر بقدرتها على المخاطرة.

كانت تجهل مكانها. فالسيارة متوقفة على قمة طريق داخلية عريضة متعرجة تحيط بها الأشجار بكثافة على الجانبين، وعلى بعد بضع ياردات، منزل ضخم وأنيق، وبابه الخشبي الثقيل مفتوح على ردهة عريضة متسعة. بدا واضحاً أن ريكو فتح الباب قبل أن يعود إلى السيارة لإيقاظها.

إلى المنزل أم إلى الطريق الداخلية؟

سألت فيليستي نفسها تتطلع فكرياً إلى الخلف وإلى الأمام تفاضل بين الخيارين.

لا بد أن الطريق الداخلية تقود إلى طريق رئيسية.. لكن، كم هي بعيدة.. وماذا وراءها؟ ولو ركضت إلى الطريق الداخلية، فريكو قادر ببساطة أن يقود السيارة ويأتي وراءها.. وهي معوقة هكذا بالتنورة الطويلة، والحذاء الساتان الرقيق بكعبيه الرفيعين العاليين، كانت تشك في قدرتها على الركض بعيداً أو بسرعة، لفترة طويلة.

لكن لو تمكنت من الوصول إلى المنزل، لاستطاعت صفق الباب وإقفاله في وجهه. لقد قال إن هناك هاتف في الردهة.. ولو استطاعت أن تكسب لنفسها بضع ثوانٍ من الحرية، فستكون فرصة كافية للاتصال بالشرطة وطلب النجدة! إذن فالمنزل هو رهانها الأفضل.

لكن، عليها أولاً أن تُفقد ريكو قدرته.. على الأقل لبضع لحظات.

- فيليستي؟

ولفت ترددها انتباهه، مما أعطاها الفرصة التي تريدها.

تمكنت من أن تبدو مقنعة في ترددها: «أنا.. أنا آسفة.. أنا لا أشعر..».

أعطاها ادعاء الإغماء والشعور ببقايا المخدر، عذراً لتحرر يديها من يديه، وضغطتهما على جبينها، مخفية عينيها.

- ألست بخير؟

بدا قلقاً بالفعل، بحيث سمحت لنفسها بابتسامة انتصار صغيرة وسرية

خلف أصابعها.

ـ أشعر بدوار. لو استطعت فقط..

إنها بحاجة لإبقاء يديها محررتين، لذا، وبدلاً من إمساك يديه مجدداً، تركتهما تستريحان بخفة على ذراعه، مستخدمة قوته لدعمها وهي تقف على قدميها.

كانت هذه غلطة كادت أن تلهيها عن هدفها. ففي اللحظة التي أطبقت فيها أصابعها على العضلات القوية المشدودة، والعظام الصلبة تحت قماش سترته الرقيقة، أحست بقلبها يرتجف، وبأنفاسها تعلق بحدة في حلقها. كان ريكو قريباً جداً منها بحيث أن رائحته الفريدة من نوعها ملأت أنفها، دافئة قوية، مثيرة، غريبة تماماً ومع ذلك مألوفة بطريقة عجيبة، جعلت نبضاتها تتسابق بحرارة.

لم يكن دوارها زائفاً هذه المرة وهي تخرج من السيارة وتقف مستقيمة ببطء مستخدمة قوته لدعمها. لم تجرؤ على رفع نظرها إليه، خشية أن تتمكن عيناه الثاقبتان السوداوان من قراءة مشاعرها على وجهها، ويدرك عندها مدى استجابتها لصاعقة الإحساس المثير الذي تسبب لها به.

ـ استندي علي.. لو شئت.

تستند عليه؟ فكرت فيليستي بنوع من الجنون. لو أنه فقط يعرف كم تتشوق لتستند عليه! وكيف أن نبضها الحار يتشوق لأن يرتمي نحوه، ويستريح على صدره الصلب.

لا! لن تستطيع تحمل نتائج التفكير بمثل هذه الأمور، وإلا ستتردد في تحقيق هدفها، وتنسى ما خططت له. عليها أن تتصرف الآن وإلا سيتأخر الوقت.

بدأت تقول بصوت منخفض وضعيف: «أنا..».

ـ سي..؟

وكما أملت، أحنى رأسه الأسود نحوها، ليسمع ما تقول.. الآن أو ضاعت الفرصة إلى الأبد.

وغاصت أسنانها البيضاء في شفتها السفلى في تركيز مصمم، ورفعت ذراعها اليمنى، وطوت مرفقها بحدة، وصوبته مباشرة إلى فكه المربع العنيد. وفي اللحظة ذاتها التي التقت فيها بقوة عظامه، اندفع رأسه إلى الوراء بحدة، فركلته ركلة متوحشة على أقرب كاحل له. سمحت لنفسها بابتسامة خفيفة من السعادة وهي تسمع صوت الألم المخنوق. ولجزء من الثانية أصبحت حرة، واستغلت اللحظة بالكامل، فرفعت تنورتها البيضاء الحريرية، وركضت نحو الباب.

لم تتمكن من الركض سوى لبضع أقدام قبل أن تطبق يد قاسية على كتفها، وتشدها إلى الخلف.. والتفت ذراع حول خصرها، تشتد حول جسمها النحيل. وهي تركل وتقاوم، ارتفعت عن الأرض.

ـ أوه لا.. لن تفعلي هذا سنيوريتا.

توقّع ريكو أن تحاول الهرب، وقد صدمت لمدى معرفته بها رغم تعارفهما القصير. لكن تبادل الحديث، علمه الكثير عن طريقة تفكيرها. مع أنه لم يتوقع أن يكون لها مثل هذه الروح القتالية، أو أن تكون مستعدة لمهاجمته بشكل مباشر كما فعلت. لكنه راقب وتعلم. وبالنتيجة، كوّن فكرة واضحة عما سيجري.

فضحت تلك البسمة الصغيرة التي ظنت أنه لن يراها أمرها، لكنها عكست ضوءاً في عينيها حذره من أنها تخطط لشيء ما.. استعد للحظة هجومها، وتوقع ذلك عندما حرّكت مرفقها، لتسدد له ضربة قوية. أما الركلة الشريرة الصغيرة على كاحله، فكانت مفاجئة، لكنه سرعان ما استعاد رشده.

ـ لن تهربي مني بمثل هذه السهولة.

ـ دعني أذهب!

وحاولت المقاومة. حاولت رفسه مرة أخرى لكن تنورة فستانها الطويلة أعاقتها، والخمار الملتف غطى وجهها، ليغشي نظرها.

ـ احذري «بيليزا».

خرجت منه الكلمات غير سوية وهو يكافح ليعدل قبضته عليها، محاولاً الإمساك بها بأمان أكثر.

ـ ستوقعينا على الأرض معاً.

ـ أتظن أنني أهتم؟

وبقسوة شدت بيديه الممسكتين بها إلى أن اضطر إلى رفعها إلى فوق، ولفّ يده مجدداً على خصرها، ورفعت يده الأخرى ساقيها، وثبت رأسها على كتفه.

قال لها بحدة: «الآن.. ربما تفعلين ما يقال لك!».

أخفى بحدة نيران الغضب المفاجىء التي اشتعلت بداخله، مما جعله يرغب في هزها بخشونة ليدخل بعض التعقل إلى رأسها.

لكن، حتى وهو يتكلم، تحركت فيليستي، وامتدت ذراعاها في حركة آلية غريزية لتلتفا حول عنقه، لتجعل نفسها آمنة أكثر.. جاءت حركتها برائحة عطر ناعمة داعبت أحاسيسه.

كانت رائحة الورد والزنبق منعشة وحلوة. لكن ما رافقها هو الركلة التي أيقظت كل مشاعره.. جعلت الرائحة النقية، الناعمة، والحادة معاً، لبشرة هذه المرأة وشعرها، جسمه كله يتقلص استجابة مع الإثارة الشرسة التي صدمته برمشة عين.

ومع تراجع رأس فيليستي إلى الوراء على كتفه، التقت عينان بلون ضباب الخريف بعينيه.. وأدرك ريكو عندئذ أنه ارتكب أسوأ غلطة في حياته.

* * *

www.liilas.com/vb3

٤ ـ العذاب الحلو

أحس بالسوء حين أبدل السيارة قبل ساعتين.

كانت عندها نائمة تماماً، لا تعي ماذا يجري من حولها. كان جسمها مسترخياً لا يستجيب، وعيناها الرماديتان الناعمتان مغمضتين ومخبئتين عنه.

لكنهما الآن تحدقان في عينيه مباشرة، وما زالت شرارات الغضب والتمرد تشتعل في أعماقهما، وتجعلهما تلمعان بتحدٍ غاضب. كانت بشرتها محمرة جراء صراعهما المزعج، وفمها مفتوحاً قليلاً وهي تحاول السيطرة على أنفاسها المضطربة.

يأبى التفكير بأن ما جعل نبضاته تتسارع ليس التلامس الجسدي فحسب. كما يرفض التفكير أيضاً بإمكانية شعورها بالتوتر المفاجىء الذي يحاول ضبطه، أو بتغيُّر مزاجه فجأة في تلك اللحظة، أو بالتحول في الحرارة التي قلبت أحاسيسه من برد الشتاء إلى حرارة منتصف الصيف؟

قال بخشونة: «سآخذك إلى الداخل».

وصدم بالطريقة التي لم يبدُ صوته فيها كصوته بل أصبح قاسي النبرة، وغليظاً.

وأكمل: «وإذا كنت حكيمة فلن تقدمي على المزيد من هذه النوبات الجنونية».

ـ ماذا كنت تظن؟ أتريدني أن أجلس وأدعك تفعل بي ما تريد؟

ـ لقد أعطيتك كلمتي.

ـ أوه.. أجل. وأنا أعرف بالضبط كم تساوي كلمتك. لقد وعدتني بألاّ تؤذيني فيما كنت تعطيني المخدر لأغيب عن الوعي.

ـ لقد سبق وقلت لك، أنا لم أخطط لمثل ذاك التأثير.

سار نحو الباب وهو يتكلم. كان يحملها بسهولة ممّا أظهر قوة عضلاته المخبأة تحت السترة المفصلة بدقة متميزة. أما هي، فقد فقدت فجأة إرادة القتال.

وكأنما في ركضها القصير نحو المنزل، استنزفت ما تملك من قوة صغيرة، وتركت نفسها مسترخية عاجزة عن الإتيان بحركة.

أوه.. من تحاول أن تخدع؟ ووبخت فيليستي نفسها بصمت. فشللها الفكري المفاجئ لا دخل له بدماغها، بل بحفنة الإثارة التي جعلت الأحاسيس تنفجر بداخلها عندما أحست بذراعيه الحديديتين تحملانها وبدت في حالة هذيان..

ـ ألا تظنين أن المخدر الخفيف هو طريقة ألطف بكثير من غيره من الطرق التي أستطيع اللجوء إليها؟

ـ وماذا تتوقع مني؟ الشكر؟ والعرفان بالجميل لأنك لم تعاملني بطريقة أسوأ؟

للحظة، بدا أنها تتعامل معه ككائن بشري. لكن سيدة السلوك الحسن عادت تتصرف. وقست العينان الرماديتان الفاتحتان وتحولتا إلى لون البحر الرمادي في يوم شتائي عاصف. وأحست على الفور بمشاعره تتبدل في ردة فعل غاضبة، وضعت حداً لردات الفعل المتقلبة التي يتعرض لها.

ـ العرفان بالجميل آخر ما يمكن أن أتوقعه منك.. على أي حال، ليس من المرأة التي ستتزوج ادوارد ڤيتابيلز..

شيء ما في سكونها المفاجيء، والنظرة المصدومة الفارغة في عينيها الجميلتين، جعله يسكت.

ثم تابع ساخراً: «أوه.. هيا الآن «كويريدا».. لا تقولي لي إنك نسيتِ حقاً أن اليوم كاد يكون أسعد أيام حياتك».

أدركت فيليستي أنها نسيت، ودار دماغها مفكراً بصدمة. يمكنها أن تعذر نفسها وتقول إن الطريقة التي اقتحم بها ريكو حياتها كالدوار خدرت أفكارها ومنعتها من التفكير. لكن الحقيقة أعمق بكثير وأقل تعقيداً من هذا.

فمذ وقعت عيناها على هذا الرجل الأسمر المدمر، فقدت السيطرة على تفكيرها الذي تمحور حول قوة وجود ريكو المذهلة. ومسح أي ذكرى عن هويتها وحياتها السابقتين.

ـ أنت لم تذكري.. أنت..

كان صوته مليئاً بالاحتقار.

صاحت فيليستي تقاطعه بحدة، وهي تكره الاحتقار الذي بدا في صوته والطريقة التي ينظر فيها إليها: «أنزلني! أنزلني فوراً! أستطيع أن أسير..».

وازدادت السخرية حدة في صوته: «لا كويريدا، كيف لي أن أحرمك من اللحظة التي تحلم بها كل امرأة؟ من اللحظة التي تثمر فيها كل أحلام الطفولة، وآمال المراهقة؟».

وتكور الفم الجميل بتكشيرة متوحشة، وتعاظمت اللكنة المثيرة مع كل كلمة. لكن صوته لم يعد يجعل أصابع قدميها تنقبض وبشرتها تقشعر بل أصبح كلذع سوط متوحش يسلخ طبقة من بشرتها، بحيث أنها أخذت ترتجف لمجرد الإحساس بالهواء على بشرتها.

وصاحت تحتج: «لا تكن ظالماً!».

رد ساخراً: «ظالماً «غاتيتا»؟ ظالماً؟ لم أكن ظالماً، بل أنا ببساطة أتأكد من أن يومك سينتهي كما أملت أن ينتهي.. وأنت بين ذراعي رجل ثري فعلاً، يحملك من فوق عتبة منزله..».

ورافقت كلماته أفعاله، وصعد السلم المنخفض إلى الباب الأمامي، ودفعه بكتفه وحملها فوق العتبة إلى القاعة الباردة.

وجدت فيليستي أنها غير قادرة على رؤية شيء بوضوح بسبب نور

الشمس.. وما زاد الأمور سوءاً، دموع الضعف التي ملأت عينيها.. دموع صممت على ألا تدعها تسقط.. فكلمات ريكو طعنت قلبها مباشرة.. لكن الحقيقة أن كلماته جرحتها كثيراً لأنها بعيدة جداً عن الواقع.

شكّت في أن يفكّر ادوارد في اتباع أيّ تقاليد لزواج حقيقي، على الأقل ليس معها. فما إن تنتهي المراسم الرسمية العلنية وحفل الاستقبال الفخم حتى يتخلّى حتماً عن أداء دور العريس المحب، ذلك الدور الذي أداه جيداً بشكل غير متوقع في الشهر الأخير.. وسيعود الرجل الذي تلاعب بحياتها وحياة والدها لينال مبتغاه.

في هذه اللحظات لم تعد تدري من الأكثر سوءاً: ادوارد أم ريكو.

- من أجل عروس جميلة مثلك، هذا أقل ما أستطيع فعله.

ما إن أصبحا في الداخل، ورفس الباب ليقفله خلفهما، حتى توقف. واتجهت عيناه الآبنوسيتان بسرعة إلى غرفة على يساره ثم نظر إلى السلم.

- الآن وقد حملتك من فوق عتبة الدار، يا ملاكي، أتساءل، ماذا بعد؟

أحنى ريكو رأسه الأسود ليتمتم في أذنها. فحرّكت أنفاسه خصلات من شعرها، ولامست خدها بنعومة دافئة.

- لو كنت فعلاً عروسي.. لعرفت بالضبط ما عليّ فعله..

وعرف جسمه كذلك. عرف أن عليه أن ينزلها، ويضعها على قدميها، ويبتعد عنها، فهذا العمل المتعقل الآمن الوحيد. لكن، وهي بين ذراعيه، لم يرد أبداً سلوك الدرب الآمن. فهو لم يكن يشعر بالتعقل أبداً، بل أدرك أنه فقد السيطرة تماماً.. وأصبح مجنوناً وفاقد التوازن بشكل خطير.

كان قلبه يخفق بجنون وخطورة، وكل إحساس فيه يصخب شوقاً. فقد وجد صعوبة في تحمل الإحساس بالذراعين الناعمتين حول عنقه، وملامسة شعرها على عنقه. أراد إنزالها على الأرض فوراً، كي ينهي العذاب الحلو، لكنه أراد في الوقت ذاته أن يتمسك بها ويطيل هذا إلى الأبد.

ـ لكنني لست عروستك!

عرفت فيليستي أن عليها كسر الدائرة السحرية التي شبكها فيها ذلك الصوت الأجش المنخفض فأضعف أحاسيسها. كان الإصغاء إليه أشبه بإنزلاقها ببطء في مغطس مليء بالعسل الدافىء الذهبي.. وأحست بالعسل يلتف حولها، يغلفها، ويهدد بأن يغرق رأسها في أيّ لحظة.

ـ أنا لست زوجتك.. ولن أكون أبداً! أنا مجرد أسيرة لديك.. رهينة.. أنا هنا تحت الإكراه، لأنك أجبرتني بالقوة على هذا! وعليك أن تنسى فوراً كل الأفكار التي تراودك! إلمسني بإصبعك ولسوف... سوف..

سألها ريكو بخبث ناعم: «سوف تفعلين ماذا «بيليزا»؟».

أدركت كم كان تهديدها أجوفاً، فهي بأمان بين ذراعيه، ومات صوتها بسرعة، فيما أكمل: «بمَ هددتني قبل الآن؟ إنك ستقتليني؟».

كان صوت ضحكته صادماً لا بل مخيفاً إذ غاب عنه أي أثر للمرح الحقيقي ولم يبق إلاّ صرف النظر الساخر عن كلماتها الغاضبة.

ـ أتعرفين غاتيتا.. قد يستحق الأمر هذه المعاناة.

ـ لا يمكن أن تعني هذا! لا تستطيع.

ـ لا أستطيع؟

حوّلت ابتسامته دمها إلى جليد. باتت الآن ترى بوضوح أكبر، لاحظت تماماً الطريقة التي اسودت فيها مقلتاه، واتسعتا، إلى أن أصبحت عيناه سوداوين تقريباً، ليس فيهما سوى خط رفيع جداً من اللون البني يحدّ حافتي البؤبؤ وهو ينظر إلى وجهها الأبيض الجامد.

ـ ما أشعر به الآن، يجعلني أعتقد أنني قد أموت سعيداً لو حصلت عليك.

بالكاد استطاعت إخراج الكلمات من حلقها المتقلص، حين أجابته بصوت أجش، وبعدم تصديق متهدج:

ـ أنت مجنون!

ولرعبها، هز رأسه موافقاً على قولها. فقالت برعب:

ـ لا!

استجمعت كل قواها لتتخلص منه، وتلوت بين ذراعيه، تقاوم قوة قبضته عليها. وضمت قبضتي يديها، وأخذت تضربهما على صدره الصلب، وتصوب بجنون على كتفيه وذراعيه، وأوشكت أن تصيب وجهه لو لم يلاحظ هذا ويرجع رأسه إلى الوراء.

ـ دعني! اتركني! أنزلني! ضعني على الأرض!

رد وعيناه تحرقان عينيها بغطرسة: «رغباتك أوامر لي».

كيّف وضعها قليلاً، وأنزلها ببطء إلى الأرض.

حين وصلت قدماها، بقي ممسكاً بها. يد صلبة على ظهرها والأخرى مثبتة على عظام ذقنها الناعمة، لترفع وجهها إليه.

قال بصوت أجش وبجوع: «أريد أن أعانقك «مي بيليزا». وإذا أردت الحقيقة، رغبت في معانقتك منذ وضعت عيناي عليك عندما خرجت من ذلك المنزل، وتقدمت نحو سيارتي. أردت أن أضمك، أن آخذك بين ذراعي، وأستنشق عطر شعرك..».

إذن فقد أحس بهذا. بتلك الاستجابة التي ضربتها كالصاعقة، وبذلك الشوق الذي لا تفسير له. أحس بها، كما أحست هي بها، في الهواء الذي تنفساه وفي تبادل نظراتهما.

قال: «وأنت تريدين هذا.. كذلك».

ـ أوه.. أجل..

أفلتت الاستجابة منها دون تفكير. ولو فكرت قليلاً لأدركت أن ما تفعله ليس حكيماً أبداً، وأنه ينمّ عن غباء.. لا بل عن بلاهة، جنون، خطورة. لكن شعورها طغى على تفكيرها فشلّه.

وهكذا مالت نحوه، وترددت يداها ببطء للحظة قبل أن تطبقا على كتفيه العريضتين، وتعلقتا به وهو يضمها بشدة.

كان عناقهما أكثر قوة مما تخيلت. أكثر قوة وأكثر قسوة، فبدا

تفكيرها منقسماً إلى جزئين، واختلطت الأحاسيس الحلوة بالذعر وهي تقاوم الحرارة التي هددت بحرقها حية.

الحرارة والشوق كسبا المعركة، وأطبقت ذراعاه عليها كالعاصفة، ساحقة، تكاد تكون متوحشة في لحظة ثم تلين لتصبح حنونة صادمة في التالية.. ما اختبرته من أحاسيس كان بهجة معذبة، جعلتها تستسلم لفيض المشاعر الذي حملها إلى عالم آخر.

وبصوت أجش نافد الصبر، شدها إليه أكثر، وقد فقد إحساسه بما يحيط به، ولم يعد يرى سواها، بجمالها وكمالها.

- ريكو!

اندفع اسمه من بين شفتيها، وقد أسرها بقوته العريضة، يسد عليها أي سبيل للهرب.

- ريكو!

أظلقتها صيحة متوحشة حادة وهي ترد رأسها إلى الوراء، وشعرها اللماع يرتاح على كتفيها.

- أرأيت حبيبتي.. هكذا هو الأمر. وهذا ما كان بيننا منذ أول لحظة.. منذ أول ثانية التقت فيها عيوننا، وهذا أمر محتم مثل شروق الشمس كل صباح، مثل كل نفس يتبع الآخر.. ويجب أن يحدث.

- يجب أن يحدث..

التكرار الأجش لقوله المحموم كان كل ما استطاعت التلفظ به.

وتمتم ريكو في أذنها: «إذن، هذا ما قُدر لنا، هذا ما يجب أن يكون.. لكن عليك أن تقبلي بإرادتك».

لم تكن للكلمات معنى.. ألا يمكنه أن يرى هذا؟ ألا يمكنه أن يشعر؟

- يجب أن تقولي لي، حبيبتي.

وانخفض الصوت الأجش، وأصبح أكثر خشونة، وراحت العينان العميقتان تحترقان مثل المعدن الذائب، تبحثان في وجهها، في أعماق روحها.

أخذت كلماته تحرق دماغها بشدة، حتى أنها أصبحت واثقة من أنه شاهد ما يعتمل في نفسها على وجهها، وقرأه في عينيها، محفوراً بأحرف من نار.. نعم.. نعم نعم! لكن بطريقة ما لم تستطع جعل الصوت ينفلت من عقدة المشاعر التي تعطل حنجرتها.

ـ هل تريديني يا حلوتي؟

هل تريده؟ سؤال سخيف!

كانت تتشوق إليه، تتألم من أجله.

ثم، وفجأة، أنار ضوء عتمة أفكارها وأيقنت أن ما تفعله خطأ.

وتمكنت من أن تقول، وشيء من الضحك يشوب كلماتها: «وهل أريدك؟ لكن من أنت؟ فأنا لا أعرف اسمك. كل ما أعرفه هو ريكو.. هذا إذا كان صحيحاً».

نظرت إلى سواد عينيه ورأت التغيير السريع فيهما. والانتقال من العبوس المرتاب إلى إدراك جديد. كان ما يجري كمراقبة الشمس تخرج من وراء غيمة، لتنير وجهه.. وخطف التحول أنفاسها.

ضحك وقال: «الحقيقة يا حلوتي؟ سي.. أوه أجل. لقد قلت لك الحقيقة.. اسمي ريكو وهو اختصار لريكاردو. ريكاردو جون كارلوس ڤاليرون في خدمتك آنستي».

كان ما قاله صفعة على وجهها.

ريكاردو جون كارلوس ڤاليرون.

وصدمت الكلمات أحاسيسها كضربة قاسية، جعلت قلبها يتوقف عن الخفقان، وأنفاسها تموت في رئتيها.

ريكاردو ڤاليرون.

لولا قوة جسمه وهو يعانقها لانهارت ساقيها تحتها، ولغاصت إلى الأرض دون حياة. راح رأسها يطن كما لو غزته آلاف من النمل الغاضب، تُخرج كل الأفكار، كل الأحاسيس، وكل المشاعر.

ـ أبعد يديك عني!

قالت هذا دون أن ترى. وكانت ممتنة لأنها لم تكن قادرة على رؤية وجهه.. أنقذها أنها لا تستطيع النظر إلى عينيه كي تتمكن من تمييز الحقيقة من الأكاذيب، والخداع، والادعاء.

هذا الرجل الذي خطفها، وحملها بعيداً عن عائلتها وأصدقائها، وعن أملها الوحيد في تصحيح كل أخطاء أبيها ودفع المال الذي اختلسه، هو ريكاردو ڤاليرون! هذا الرجل الذي تعتمد على رحمته من أجل سلامتها وأمنها، وربما حياتها، هو الرجل الذي تعرف أن عليها أن تخشاه أكثر من أي شيء آخر.. الرجل الوحيد الذي يملك القدرة على تحويل موقف سيء، إلى مريع تماماً.

ويبدو الآن أنه فعل هذا بالضبط!

* * *

٥ ـ حكم مدى الحياة

وكأن كل أحلامها السيئة تحققت بلحظة.

ريكو هو ريكاردو ڤاليرون.

انحصر تفكيرها المصدوم بهذه الفكرة دون سواها، الشيء الوحيد الذي كان له معنى في العالم الذي تحول مجنوناً فجأة. لكن عليها أن تفكر به في ثوانٍ سريعة مختصرة، قبل أن يفقد دماغها قدرته على تحمّل الألم.

ريكو قاطع الطرق تلاشى، ذهب إلى الأبد، دمرته بضع كلمات قيلت دون اكتراث، وباعتداد بالنفس. ولم تصدق كيف أن قلبها الأحمق، الذي خدع ببؤس، صاح بكرب أمام هذه الفكرة.

في الواقع، اشتاقت إليه.. اشتاقت لريكو قاطع الطرق، النذل، الخاطف، الكاذب.. لكنها توصلت إلى أن تتقبل كل هذا، فكادت تتركه يفتنها، وأوشكت أن تثق به. لكنها لم تكن تعرف حقيقة أكاذيبه، ولا مدى خداعه. الآن تعرف، وتشعر كأن عالمها تحطم ليصبح شظايا قاسية مبعثرة من الزجاج تهدد بمهاجمة روحها بوحشية لو حاولت التفكير فيه.

ـ قلت أبعد يديك عني!

ـ أبعد..؟ فيليستي.. كويريدا..

لم يكن ريكو قد شاهد من قبل أي شخص يتغير بمثل هذه السرعة وبشكل كامل هكذا. فمنذ لحظة كان يضم بين ذراعيه امرأة تستجيب له بكل أحاسيسها وبحرارة. وفي اللحظة التالية، بدت وكأن دمها تجمد في عروقها، وحولها إلى امرأة ثلجية لا تتحرك، من الرأس حتى أخمص

القدم. لم يستغرق هذا التحول أكثر من ثانية، مما اضطره إلى أن يواجه واقعاً جديداً. وبسرعة أحس معها بالصدمة، وارتج جسمه رغم أنها لم تتحرك أو حتى تلمسه.

ـ ولا تجرؤ على مناداتي حبيبتي! فأنا لست حبيبتك.. أنا لست شيئاً بالنسبة لك! وهذا بالضبط ما أريده..

ـ ما الذي.. يجري؟

ـ ليس ما ظننت أنه يجري.. هذا أمر مؤكد.

ورمته بنظرة كراهية جعلته يتراجع نصف خطوة إلى الوراء، وتصلب بحدة واسترخت يداه. وأكملت: «ولا شيء آخر سيحدث.. لا شيء! وأنا أفضل الموت!».

ـ وهل موتك سيكون بالطريقة ذاتها التي أقسمت على قتلي بها لو لمستك مرة أخرى؟

اجتمعت الصدمة مع ارتباك أجوف، وظهرت البداية البطيئة لألم قاسٍ من الإحباط والسخط، مما جعل مزاجه أسود. وامتزج التذمر المستمر مع فقدان التوازن، ليخلقا غضباً بارداً استحال كتمه: «انظري إلي حبيبتي.. انظري إلي!».

وامتدت يداه بإيماءة مؤثرة، مما لفت انتباهها إلى حالته المضطربة.

ـ حسن جداً، لقد عانقتك، عانقتك بحرارة، ولم تحتجّي.. ولم تقولي لا.

بدأت فيليستي ترد بصوت أجش: «هذا..».

لكنه تجاهلها، وتجاوز محاولتها الضعيفة للمقاطعة مع تدفق كلماته مثل طوفان نهر، من المستحيل استيعابه.

ـ كنت تعانقينني بحرارة منذ لحظة.. لكنك الآن تجمدين كسيدة الثلج.

ـ كان هذا قبل أن أعرف من أنت!

ورمت الكلمات في وجهه بيأس، فهي لم تدر كيف تشرح له.

ريكاردو ڤاليرون.

لقد سمحت لريكاردو ڤاليرون بأن يعانقها.. وانكمشت بشرتها لمجرد التفكير بما جرى.

بعد وقت متأخر جداً، رن تحذير ادوارد في أذنيها: «الرجل الوحيد الذي يجب أن تحذري منه.. والرجل الذي يمكنه أن يضر بوالدك.. هو ريكاردو ڤاليرون. إنه قاطع رقاب، شرير، لا يرحم، ويفتقر إلى الأخلاق، ولن ينظر إلى المال الذي يدين له به جو كدين، بل كإهانة شخصية. وإذا اكتشف أن والدك يتلاعب بالحسابات، فسيطالب بالدم بديلاً، إنه أرجنتيني، ودمه لاتيني.. وكل هذا».

أرجنتيني. وليس إسبانياً كما ظنت، ولعنت فيليستي نفسها ببؤس لأنها لم تدرك هذا قبل الآن، ولا حتى ارتابت للأمر.

رد ريكو على كلامها: «قبل أن تعرفي من أنا؟ إذن أنت تعرفينني؟ وقد سمعت باسمي؟».

ـ بالطبع سمعت به! فوالدي هو المحاسب لديك، كان من المفترض أن أتزوج ادوارد، وأعرف أنكما خصمان في العمل.

كانت تعرف أيضاً أن لا محبة تربط بين خطيبها المفترض وهذا الرجل. وأنهما خصمان على الصعيد الشخصي والتجاري منذ سنوات طويلة.

تمتم ريكو، يكسو كلماته ظلّ أسود خطير جعل فيليستي ترتجف: «خصمان كلمة لا تفي بالمراد».

لو أنها تعرف بالضبط لما خطفها. هل السبب هو مصالح خطيبها.. ليضمن توقيع عقد بالغ الأهمية بالطريقة التي يريدها ريكو؟

أو الأمر الأكثر إقلاقاً، هل السبب هو والدها؟ هل يريدها رهينة كي يجبر والدها على تسديد المال الذي يدين له به؟ فلو أن السبب كان الأخير، لمر وقت طويل قبل أن تتحرر.. واقشعرت بشرتها رعباً لهذه الفكرة. فذاك المبلغ الضخم لم يكن من السهل السكوت عنه. وفي الواقع

قد يستحيل على والدها جمعه. . أوليس هذا السبب الذي دفعها إلى الالتزام بزواج المهزلة هذا من إدوارد؟ فهي لم ترَ أي طريق آخر للخلاص.

أضاف ريكو ونظرته السوداء تمر بها بازدراء: «من الجيد أنك ما زلت تتذكرين عريسك المهجور، حتى ولو تأخر القلق قليلاً ليكون صادقاً».

ـ بالطبع أذكره! لا بد أنه يكاد يجن من القلق.

وحاولت بهذا استعادة الأرض التي عرفت أنها خسرتها.

ـ بالعكس. . أعتقد أن لديه الكثير يشغله. . حتى أنني أشك في أنه سيلاحظ غيابك.

غاب الدفء عن ابتسامته بل كانت باردة دون رحمة وكأنها ضربة سوط لا يرحم. وتابع: «بدا لي أنكما متناسبان جداً. أخبريني. . ».

واستند إلى الجدار ورمقها بنظرة تقييم مهينة بطيئة من رأسها إلى قدميها الرقيقتين في الحذاء الأنيق.

ـ . . هذا الفستان الأبيض. أتستحقين ارتداءه أم أنك شبيهة بنساء كثيرات هذه الأيام، يرتدينه لمجرد المظاهر، ولإخفاء عدد كبير من الخطايا؟

صاحت فيليستي: «هذا ليس من شأنك!».

وعلا وجهها لون ناري كشف مدى استيائها من طرحه أسئلة شخصية، لا تعنيه. وقالت بحدة: «لقد وعدتني بمكالمة هاتفية».

أرادت الحصول على لحظة من الهدوء أمام وضع يتداعى بسرعة قطعاً بين يديها.

ـ تفضّلي.

ومد ريكو يده إلى جيبه وأخرج الهاتف النقال الصغير الحجم الفضي اللون الذي رأته يستخدمه في السيارة عندما بدأت محنتها.

ـ أوه. . لكنني. . ظننت. .

ـ ظننت أن لدي هاتف عادي هنا في الردهة تستطيعين استخدامه تحت مراقبتي. على أمل أن تتسللي في ما بعد وتستخدميه سراً، وتخبري الجميع

بمكانك.

لاحظ أن عينيها بحثتا في الردهة عن هذا بالضبط، وأكمل: «هل تعتقدين حقاً أنني أبله كويريدا؟ أتظنين لأنني لست جيداً في هذا...».

واستخدم بسخرية كلماتها وهما في السيارة: «.. ألا يكون لديّ فكرة عن كيفية عمل دماغك وأنواع المشاريع التي تخططين لها لتتفوقي علي؟ أعطني قليلاً من العقل السليم».

كان عليها أن تعترف له بأكثر بكثير من هذا، وهي الآن تكاد تصدق أنه يملك القدرة على قراءة أفكارها. وبكل تأكيد، كان يتقدّم على كل عمل تقدم عليه بخطوة.. ويتفهم ويحول دون تنفيذ خططها دون جهد، وبشكل مهين.

جأرت دون لباقة وهي تمد يدها:

ـ أعطني الهاتف فقط.

وأفلتت منها صيحة حرج مع تعثرها بالفستان بشكل خطير.

راقب ريكو كفاحها بتسلية لم يخفها، ولمعان شيطاني في أعماق عينيه.

ـ ألا تعتقدين أن الوقت متأخر للقلق على فستانك؟ على أي حال، ما من داعٍ لارتدائه..

ـ وهذا لا يعني أنني سأنزعه عند طلبك! ومن الآن وصاعداً، أبقي عينيك المتسللتين ويديك لنفسك.

ورفعت فيليستي قامتها، وارتفع ذقنها تحدياً وضاقت عيناها، وهي تجمع شتات ما تبقى من وقارها.

وقالت ببرودة: «الهاتف..».

عادت تتصرف كسيدة القصر، السيدة التي جعلته يصرّ على أسنانه عدة مرات. وأصبح بعد الظهر طويلاً جداً، ومتعباً جداً، ولم تكن فيليستي هاملتون كما صوّر له. وجاءت نتيجة ذلك أن تصرفه أصبح عشوائياً حتى أنه بالكاد يعرف نفسه.

ما الذي دهاه ليتهجم عليها هكذا، كالثور الهائج؟ لقد تجاوز بكثير السن الذي تتحكّم فيه هرموناته برأسه، مع ذلك أوشك أن يفقد السيطرة وهو أمر غريب تماماً عنه إذ أنه يفاخر بمعاملته للنساء باحترام. لكن مع هذه المرأة، تبخرت الحواجز والروادع التي أصلحها بعناية كالندى قبل شروق الشمس.

لكنها كانت معه في كل جزء من الطريق، ولم تحتج إلى إقناع، ولم تُظهر أي دليل تردد أو شك. وبالرغم من أنها كانت في طريقها للزواج من رجل آخر، فقد استجابت لعناقه وكأنه الرجل الوحيد في العالم.

كانت ماريا على حق، فأخلاق المرأة أخلاق قطة أزقة، وتستحق المعاملة على هذا الأساس.

كررت فيليستي، تدس قدر الإمكان ثلجاً في كلماتها: «الهاتف..».

عرفت أنها باغتته بخشونة حين رأت بريق شيء خطير في عينيه القاتمتين العميقتين. لكنه عاقبها على نصرها الصغير فوراً، ورمى الهاتف نحوها بحيث وقع على مسافة قصيرة بعيداً عن منالها، فانحنت بعد معاناة وتمكنت من الإمساك به.. وطلبت رقم هاتف والدها النقال بسرعة قبل أن يستطيع ريكو التدخل.

قالت له برنة انتصار: «أنت تدرك أن رقمك سيتسجل على هاتف أبي».

بدا غير مهتم بشكل يثير السخط.

ورد عليها يقلد صوتها بسخرية ودقة: «وهل تدركين أن هذا بالضبط ما أريده؟».

ـ تريده..؟ أوه.. أبي!

وتهدج صوتها مع سماعها صوت جو هاملتون العميق المطمئن.

ـ أبي.. هذا أنا.. فليس.

ـ فليس حبيبتي.. وأخيراً!

ثمة شيء خاطىء.. شيء ما في رنة صوت والدها لم يبدُ مريحاً.

لكن بعد صدمات اليوم واضطراباته، كان دماغها عاجزاً عن التركيز، ليتمكن من فهم الأمور.

ـ كنت أتساءل متى ستتصلين.

ـ أنت..

دارت أفكارها بعد أن أدركت ما الذي يلح عليها بشكل غير مريح، ويطلق أحاسيسها الحذرة.

لم يكن والدها مصدوماً، ولم يبدُ كرباً أو قلقاً. رغم أنه انتظر مكالمتها لثلاث ساعات أو أكثر، ثلاث ساعات أدرك خلالها أن ابنته التي رآها تختفي في سيارة يقودها غريب، تلاشت عن وجه الأرض. ثلاث ساعات أيقن فيها أنها لم تحضر الزفاف الذي سينقذه، ولا فكرة لديه عن مكان تواجدها.

لم يبدُ قلقاً أبداً.

ـ أبي؟

وجعلت الصدمة صوتها متردداً.

ـ كيف حال أمي؟

وكان هذا هو همها الأول... أمها الضعيفة، التي نصحها الأطباء بأن تأخذ الأمور بروية، وتتجنب أي نوع من الضغوط، بسبب قلبها الضعيف. كان تعرّض والدتها لقلق الساعات الماضية يقلق فيليستي حتى السقم. ماذا لو أصابها مكروه؟ نوبة قلبية؟ أو أسوأ!

ـ أمك بخير.

مرة أخرى صدمها صوت جو المرتاح.

ـ لكن، هي بالطبع لم ترغب في أن تتزوجي ادوارد.

وتذكرت فيليستي.. لا، فقد كانت أمها الشخص الوحيد الذي لم تتمكن من خداعه. رأت كلير هاملتون بوضوح الدور الذي لعبته ابنتها بدقة خلال الأسابيع الماضية، ولاحظت اللهفة والذعر المختبئين خلف كل تصرفاتها. حاولت فيليستي طمأنتها بأنها تعاني فقط من توتر ما قبل

الزفاف، لكنها عرفت أنها لم تقتنع تماماً.

ـ وهي تأمل أن تكوني مدركة لما تفعلينه.

تفعل؟

أخذت نفساً عميقاً، وقررت أن المخاطرة هي السبيل الوحيد.

ـ أبي.. أنا مع ڤاليرون.

اتجهت عيناها نحو ريكو الذي يقف بصمت قرب الجدار. كانت عيناه الأبنوسيتان محترستين تراقبان كل حركة، كل رفة مشاعر على وجهها.. شجعت نفسها لتواجه ما تظن أنه ردة فعله المحتمة، وتوقعت أن يرمي بنفسه نحوها غاضباً، وينتزع الهاتف منها بغضب بسبب ما كشفته.

ويا للعجب! لم يحصل ما توقعته. لقد بدا ريكو راضياً ينتظر ويراقب بكل بساطة.

ـ أنا.. ريكاردو..

ـ أجل نعرف هذا.

وأمام ذعرها، لم يبدِ والدها ردة فعل على ما ظنت أنه سيذعره.. وبدلاً من ذلك سمعته يضحك.

ـ لقد غضب ادوارد في البداية، لكن هناك أشياء أخرى تشغله.

ـ وكيف تعرف؟

ماذا تلقيا؟ مطالبة بفدية؟ تهديد من نوع آخر؟ لكن عندئذ، لن يبدو والدها هادئاً ومسترخياً هكذا.

ـ أبي.. ماذا يجري؟

ـ يجري حبيبتي؟ كنت أظن أنك من سيطلعنا على الأخبار. فعلى أي حال، أنت التي أوقعت ڤاليرون في الشرك.

ـ أوقعته في الشرك..

أبعدت فيليستي الهاتف عن أذنها ونظرت إليه غير مصدقة أبداً، يستحيل أن يقول والدها ما ظنت أنها سمعت.. هذا مستحيل! لكنه بدا

مرحاً جداً وبشكل مناف للمنطق، وتسلل قلق مرتاب جديد إلى دماغها.

ـ أبي.. هل أنت بخير؟ اسمع.. دعني أكلم ادوارد!

ذكرت اسم الرجل لتختبر ريكو وتدفعه إلى القيام بعمل مفاجىء.

صاح: «هذا يكفي».

وخطا خطوتين سريعتين إلى الأمام، وامتدت يده إلى الهاتف لينتزعه منها.

وتوقف للحظات تكفي ليقول ببشاشة في الهاتف: «سأتصل بكم».

وأغلق الغطاء، ثم دفعه في جيبه عميقاً.

احتجت فيليستي، ويدها تمتد لتستعيد الهاتف: «كنت أستخدم هذا!».

لكن أصابع ريكو البرونزية أطبقت على معصمها، وأكملت: «ما زال لدي أشياء أقولها».

رد ريكو دون تأثر: «لقد قلت ما يكفي. وإذا أحسنت التصرف.. فسأتركك تتصلين في ما بعد».

ـ لو أحسنت التصرف؟

رددت الكلمة بمرارة... حبذا لو تجرؤ على التمرد! لكنها تعرف أنها ستخاطر لو حاولت أي شيء سخيف.

ـ وأعتقد بأنك تعني كلمة «أتصرف» حرفياً؟

ارتفعت الكتفان العريضتان تحت السترة الفاخرة في هزة عدم اكتراث متميز.

قال: «يمكنك أن تحاولي الذهاب إلى مكان آخر.. لتري أين سيوصلك هذا. لكن بصراحة، أنصحك بألا تفعلي هذا».

أثّر هدوءه فيها.. وأزعجها السواد البارد الزجاجي في عينيه، ورنة صوته الخالية من المشاعر، والنقص الكامل للتعبير في الكلمات التي استخدمها، إضافة إلى عدم اكتراثه.

إن ريكاردو ڤاليرون يسيطر تماماً على هذا الموقف، وما يقوله ينفّذ،

إذ أنه يتحكم بكل حركة، بكل تطور. يمكنها أن تركل وتصبح بقدر ما أوتيت من قوة لكن مجهودها سيذهب عبثاً فهي الآن كالدمية التي لا تتحرك إلا حسب رغبة محركها الذي يتلاعب بالخيوط.

لكن هذا لا يعني أن عليها الاستلقاء أرضاً والاستسلام.

ـ أجهل ماذا تظن أنك ستكسب من كل هذا! لكني لا أعتقد أنك تقوم بعمل جيد في هذا الاختطاف.

ـ وكما قلنا سابقاً.. أنت الخبيرة في مثل هذه الأمور.

دمّرتها الطريقة التي التوى فيها ذلك الفم الجميل بخفة إلى زاوية واحدة وريكو يكافح كيلا يستسلم لتسليته. فهي لم تستطع تحمل فكرة أنه يسخر منها، وأنه لا يأخذها على محمل الجد.

قالت بغضب: «هناك قوانين تمنع حصول هذه الأمور في هذه البلاد! ويمكن الحكم عليك، وسجنك! وأعتقد أن هناك حكم بالسجن مدى الحياة إذا وجدوك مذنباً».

ازدادت الابتسامة اتساعاً، مما وضع لمعاناً شيطانياً مدمراً في أعماق العينين السوداوين كالقهوة.

ـ آه.. لكن أترين فيليستي، كويريدا، ما من محكمة في العالم تستطيع أن تدينني على هذا.

ـ بالطبع سيدينونك! يجب أن يدينوك!

وتصاعد غضبها، ليعميها عن الخطر المختبىء وراء كلماتها المتهورة: «سأقدم دليلاً ضدك.. أنا.. أنا سوف أطلب محاكمة سرية إذا لزم الأمر. وسأتأكد من أن تدفع ثمن فعلتك هذه!».

ـ يمكنك أن تجربي يا حلوة، لكنني أشك في أن تنجحي. على أي حال، لِمَ تقبل أيّ محكمة الحكم مدى الحياة على رجل، قام بهذا بكامل إرادته؟

ـ رجل مثل ماذا؟

لم تستطع فيليستي سوى أن تهز رأسها بارتباك، وعيناها الرماديتان

www.liilas.com/vb3

غائمتان، وأكملت: «أنت لا تقول شيئاً له معنى! عمّ تتكلم؟».

ـ الأمر بسيط جداً غواتيتا.

هدر صوت ريكو انتصاراً، وزاد اللمعان في عينيه وهو ينتقل للقتل كلامياً.

ـ ماذا يُقال.. في السراء والضراء، في الغنى والفقر.. إلى أن يفرقنا الموت.

ـ لقد أضعتني حقاً الآن.

هل الرجل مجنون تماماً؟ ظنّت أنه يستحيل أن تسوء الأمور أكثر، لكنها تبدو الآن وكأنها تورطت مع مجنون.

ـ وما دخل كلمات مراسم الزواج بكل هذا؟

ـ لها دخل كبير يا ملاكي، يقول البعض إن الزواج حكم مدى الحياة، وبكل تأكيد ما من محكمة في العالم تحكم على رجل يرغب في الهرب مع عروسه الموعودة.

ـ عروسه.

كان رأس فيليستي يسبح، ومعدتها تتقلص ذعراً. جفّت حنجرتها بألم، واضطرت لابتلاع ريقها بالقوة قبل أن تحاول الكلام.

ـ أنا لن أتزوجك! ولن يصدق أحد هذا!

ـ أوه.. لكنهم صدقوه الآن.. ولماذا تظنين إذاً أن والدك كان مسروراً؟

ـ لا!

أصبح دماغها صيحة احتجاج وجنون واحدة. وكل ما استطاعت إخراجه من حنجرتها كان همساً فجاً وخشناً.

أصر ريكو بلؤم ناعم: «بلى.. أوه بلى.. الجميع، كل عائلتك وأصدقاءك الذين اجتمعوا في الكاتدرائية، يعتقدون أنك تركت ادوارد المسكين واقفاً أمام المذبح، لأنك أغرمت بجنون بشخص آخر، وأردت أن تكوني معه».

ـ والشخص الآخر هو أنت؟

لم تستطع أن تخفف حدّة الرعب من صوتها. رعب تضاعف، عندما أمال ريكو رأسه الأسود الفخور بموافقة لا مبالية.

ـ لكن، لِمَ يظنون هذا؟ وما الذي جعلهم يظنون...؟

ـ لقد صدقوا هذا لأنك قلت لهم هذا... لأن هذا ما ورد في الرسالة التي أرسلتها..

قاطعته فيليستي وصوتها يرتجف رعباً: «الرسالة التي أرسلتها أنت! أنت قلت كل هذا! أنت قلت الكذبة! أنا لم..».

لم يتمتع باللياقة ليخجل. وعوضاً عن ذلك نظر إليها ببساطة، ورمقها بتلك النظرة الباردة التي لا تتحرك. بدت رموشه الكثيفة طويلة جداً فوق سواد عينيه.

قال متشدقاً: «لا يهم من قال ماذا كويريدا.. المهم ما صدقه الجميع، والكل صدق ما قيل لهم. وما من أحد سيطلق رجال الشرطة في أثرنا، ولن يأتي أحد خلفنا الآن، ولا في أي وقت آخر في المستقبل. ولِمَ يأتون وهم يعتقدون أن كل ما نريده هو أن نكون لوحدنا معاً؟».

جمّدت الصدمة والذعر لسانها في فمها. ولم تعد قادرة على أن تجبر نفسها على صياغة كلمة واحدة. كلّ دماغها فبات عاجزاً عن الاستيعاب. وتشوقت لتصرخ في وجهه.. لتصيح متحدية في وجهه الذي يراقبها، وتقول له إنها لا تصدقه..

لكن الدلائل كلها تشير إلى أنه يقول الحقيقة. لقد كشف تصرفه الهادىء المسترخي المخيف، قناعة لا تتزحزح عن كل ما قاله.

وهكذا لم تستطع سوى الوقوف جامدة في مكانها تراقبه مشدوهة مسمرة وهو يدس يداً طويلة الأصابع في جيب بنطلونه ويخرج خمالة مفاتيح رنانة.

الرنين الخفيف للمعدن وهو يدخل المفتاح في قفل الباب الأمامي، ويديره، ويتأكد منه، خدشت أعصابها المشدودة، وجعلتها ترتجف

ببؤس.

ـ حسناً يا فيليستي الحلوة، من الأفضل أن نرتاح، إذ يبدو أننا سنمضي الليلة بمفردنا هنا.

ودون اكتراث رمى كومة المفاتيح في الهواء، ثم تلقاها بيد واحدة. كانت فيليستي على وشك الانهيار حين فعل هذا بحيث أجفلت إلى الوراء بحدة وكأنها خشيت من بروز شيء من الظلال.

وتابع ريكو، برنته الكسولة المتشدقة: «في الواقع.. يبدو أننا سنبقى على هذا الحال للمستقبل المنظور.. وهذا بالضبط ما أريده».

***

٦ ـ حلمت بك

كانت الشمس قد ارتفعت في سماء لا غيوم فيها، قبل أن تتحرك فيليستي. كاد تألق اليوم يعميها وهي تفتح عينيها على مضض، وتتطلع حولها، علماً أنها استغرقت وقتاً طويلاً لتنام ليلة أمس. وما زالت خيوط النعاس الثقيلة كخيوط عنكبوت لزجة، تتمسك بأفكارها بشكل مؤلم.

لم تذكر لثوان طويلة، أين هي، وحدقت غير مدركة في غرفة لم تتعرف إليها. . هذه ليست غرفة النوم في «هايسون هاوس» حيث تتوقع أن تجد نفسها في صباح ليلة زفافها.

لكن ذاكرتها سرعان ما عادت إليها، ومعها سلسلة مريعة من الصور التي طافت في دماغها، وغمرت أفكارها، وجعلت رأسها يعود ليسقط فوق الوسادة وهي تطلق آهة رفض وبؤس.

ريكاردو ڤاليرون.

كان رنين اسمه لعنة على شفتيها تنطق به بإحساس من الغضب الشديد والغم.

ريكو ڤاليرون الحقير! ريكو، اللعنة عليه، القذر ڤاليرون!

راودها إحساس جديد من الرضى اكتسبته عندما ألحقت ألقاباً دنيئة بالرجل الذي جاء بها إلى هنا. رغم أنها لم تحقق شيئاً إيجابياً من تصرفها هذا عدا أنها شعرت بتحسن لأنها نفست عن مشاعرها.

ـ ريكو الـ. .

ـ نعم؟

وجاء الرد مفاجئاً، بحيث أجفلت فيليستي وهي في الفراش، واتجهت عيناها المذعورتان إلى الباب، وتركزتا بارتياك على ريكو الطويل القري، محاولة فهم مزاجه.

لكن استحال عليها قراءة أي شيء من قسماته الجامدة ومن الطريقة التي تركزت عيناه السوداوان اللامعتان عليها. ولم تستطع فيليستي أن تكتم آهة خيبة أمل.

ـ لقد ظننت أنك مجرد حلم.

وكورت ابتسامة بطيئة فم ريكو الجميل، مما جعل قلبها ينبض بحدة.

قال متشدقاً: «وأنا حلمت بك أيضاً، كويريدا».

طافت عيناه الآبنوسيتان عليها فتأملها من قمة رأسها الأشقر الأشعث إلى وجهها الذي أدفأه النوم، وأطال النظر إلى عينيها الواسعتين الرماديتين كالغيوم.

أوه.. أجل.. لقد حلم بها.. وتذكر ريكو هذا، وقاوم الإحساس الذي سرى في جسده. لقد استفاق متألماً ينتفض، ونبضاته تتسارع وبشرته تلمع بالعرق.

بعد هذا، ثبت أن من المستحيل أن يعود إلى النوم لما تبقى من الليل. واستلقى مستيقظاً لساعات يتخيلها هناك في هذا الفراش، في الغرفة المجاورة لغرفته، وأذناه حساستان لسماع أقل صوت يمكن أن يصدر عنها.

ردت فيليستي باحتجاج: «أنا لم أقل إنني حلمت بك!».

وكافحت بسخط لتسند نفسها إلى الوسادة، وأبعدت خصلة حريرية من شعرها الأشقر الناعم عن عينيها.

ـ ولو أنني حلمت بك، فصدقني لكان كابوساً رهيباً يجعلني أصرخ رعباً.

هل بدت حقودة جداً؟ وهل سترد العينان المراقبتان من خلال الدرع

الذي حاولت وضعه بين نظرته الثاقبة ومشاعرها؟ أدرك أنها تقاوم لتقنع نفسها كما تريد إقناعه، لا بل أكثر.

ـ لكنت أيقظت المنزل كله.

ـ لكن، بما أنه لا يوجد هنا سوانا، فهذا لا يهم.

دخل ريكو إلى الغرفة، وتقدم ليجلس على حافة السرير، مما جعل فيليستي تكور ساقيها بسرعة لتتجنب أي تلامس مع جسمه، ولو عبر نعومة الغطاء الفاخر الذي يغطيها.

ـ ولكنت سعيداً جداً بأن أجيء وأنقذك من كابوسك وأهدئك لتعودي إلى النوم بين ذراعي.

جأرت فيليستي دون لباقة: «أوه.. أراهن أنك كنت ستفعل هذا!».

صعب عليها ألا تلاحق عيناها الخطوط النحيلة الطويلة لعضلات ذراعه الناعمة، المكشوفة تحت قميص «بولو» كحلي قصير الكمّ.

ـ لكن بالطبع، لن يكون النوم أول شيء أفكر فيه.

ـ لا؟

وأكملت: «أنت تدهشني حقاً».

ـ ولن تفكري في النوم أنت أيضاً.. أوه. قد تقاومين الفكرة في البداية.. قليلاً فقط.. من باب الكبرياء. لكن هذا سيكون ادعاء.

ـ أيها المغرور!

اشتعل الرفض الناري لكلماته في عينيها الرماديتين، وارتفع ذقنها بحدة وهي تحدق إلى وجهه الأسمر المتعجرف.

ـ وهل تظن حقاً أن كل ما عليك فعله هو أن تشير بإصبعك، وستأتي أيّ امرأة راكضة ككلب صغير لاهث ينتظر لمسة من يد سيده؟

ـ أوه.. لا.. غاتيتا..

شيء ما في ابتسامة ريكو خدش طبقة واقية من بشرة فيليستي، وتركها ضعيفة.

وأكمل: «أولاً، حين تكونين موجودة، لا أريد أيّ امرأة.. بل أريد

www.liilas.com/vb3

واحدة فقط. . وأنا واثق من أنني لست مضطراً لأن أقول لك من هي».

لم يكن مضطراً إلى البوح بالاسم، فقد كان الجواب ظاهراً في عتمة عينيه وفي الطريقة التي تتركزان فيها على وجهها. كان كل شيء فيه يعلن دون كلمات ما يجري في تفكيره. .

وأكمل: «حين تكونين في الغرفة، لا ألحظ أحداً سواك. قد يكون هناك مئة امرأة أخرى، لكني لن أرى واحدة منهن. . ولن يكون هناك أحد سواك».

ـ وهل من المفترض أن أشعر بالغرور لهذا الكلام؟

استخدمت العدوانية كدفاع عن النفس. لم ترغب في أن تستمع لرنة صوته المغرية، وأرعبها أن تترنح أمام تزلفه. . لكن ورغماً عنها، جعل الإطراء المبالغ فيه قلبها يرتجف بخيانة.

ـ ليس الغرور. . لا.

هز ريكو رأسه الأسود، وتلاشت ابتسامته تاركة وراءها جدية لم تجرؤ على الشك بها.

ـ صدقيني أنا لا أتملق.

زاد عمق لكنته معنى الكلمات، وحولها إلى حرير مثير.

ـ أنا ببساطة أقول الواقع. . وهو أنك امرأة جميلة. . أجمل امرأة عرفتها بحياتي، وما علي سوى النظر إليك لأتشوق إليك. . وأنت تشعرين بالشيء ذاته نحوي.

ـ لا. .

هزت فيليستي رأسها، ترغم نفسها على النظر بعيداً، لتكسر تأثيره عليها. لكن ومع أن دماغها كان يصيح بالتعليمات، إلاّ أنّ جسمها رفض الطاعة.

حاولت مرة أخرى، وبنجاح أكبر هذه المرة: «لا».

أصر ريكو بشراسة: «بلى! وتعرفين أن هذه هي الحقيقة. . فمعك، لم أكن بحاجة لأن أشير بإصبعي. معك يمكنني أن أجلس وأنتظر. . ».

وأرفق كلامه بالفعل، واسترخى إلى الوراء على نهاية السرير، مستنداً بأناقة متكاسلة على اللحاف. تحداها لمعان عينيه لترفض وصفه المتعجرف وكان هذا استفزازاً صممت على تحمّله.

قالت: «إذن عليك أن تنتظر طويلاً. وستتجمد النار قبل أن أدعك تلمسني».

هز ريكو رأسه بتأنيب مزيف ساخر، وعيناه بلون القهوة السوداء تلمعان من خلال رموش كثيفة.

ـ يجب أن تتوقفي حقاً عن رمي هذه التهديدات التي لا يمكنك تنفيذها. ليلة أمس قلت إنك ستقتليني لو لمستك. وهذا الصباح أنت مثل قطة متوحشة، ترغين وتزبدين، وتهسين في تظاهر بالغضب..

ـ هذا ليس ادعاء!

وازداد غضبها مئات المرات حين رأت حاجبه الأسود المستقيم يرتفع بتساؤل ساخر، وأكملت: «وأنا لا أمزح!».

ـ ولا أنا يا ملاكي.

تخللت التمتمة الناعمة للكلمات لهجة أكثر سواداً وعمقاً، جعلتها ترتجف دون إرادة منها، وتكورت أصابع قدميها بتوتر تحت القماش القطني الأزرق.

وأكمل: «لم أكن يوماً بمثل هذه الجدية القاتلة».

وأسرت النظرة القاتمة العينين الرماديتين بقوة مغناطيسية، وأبقتهما مسمرتين، بحيث أنها مهما تشوقت لتنتزع عينيها بعيداً، وتنظر إلى مكان آخر كانت تجد نفسها تحدّق إلى أعماق عينيه. لم تستطع سوى الجلوس هناك مسمرة بقوى وجوده المغناطيسية، وصوته الأجش المنخفض يلتفّ حولها كالعطر ويحيك رقية سحرية منومة تأسرها دون جهد.

ـ أنت تعرفين أن هذا شعورنا.. فلِمَ تحاولين الإنكار؟ لمَ تحاولين مقاومة شيء يريده كلانا؟

تحوّل غطاء اللحاف الخفيف إلى حرارة شديدة، لم تستطع فيليستي

تحملها. وتشوقت لرمي الغطاء عنها، إلا أنها تذكرت أنها ترتدي ثياباً رقيقة للنوم، فصرّت على أسنانها.

ـ أنا لا أريد هذا!

ـ لا.. كويريدا؟

كانت لهجته مرتابة.. وأكمل: «أعتقد أنني أعرفك أفضل من نفسك.. تذكري أنني ضممتك ليلة أمس وعانقتك، وأحسست باستجابتك..».

حاولت فيليستي إنكار ما يقوله، لكنه جمّد هزة رأسها بنظرة سريعة من عينيه العميقتين.

ـ أعرف أنك تتوقين إليّ كما أتوق إليك، وأعرف كذلك أنك جبانة لا تجرؤين على الاعتراف بذلك..

ـ جبانة؟ كيف تجرؤ؟ سأريك من هو الجبان!

أفقدتها لهجته المستفزة ولمعان الازدراء في عينيه السوداوين عقلها، فرمت بالحذر عرض الحائط، ودفعت باللحاف إلى الوراء وهي ترمي نفسها عليه معبرة عن غضبها.

ـ كيف.. تجرؤ..؟

أدركت متأخرة جداً ما فعلت، والخطر الذي وضعت نفسها فيه بسبب ردة فعلها المتهورة.

كانت قريبة منه بشكل خطير يهدد أمانها، ويكاد يطيح بالدرع الذي رفعته لحماية نفسها من تأثيره.

جمدت فيليستي رعباً، وحرمتها الصدمة من القدرة على الكلام أو الحركة.. ورفع ريكو رأسه الأسود لينظر إلى عينيها الواسعتين المرتاعتين الرماديتين.

ـ أتعرفين غاتيتا.. أعتقد حقاً أن عليك أن تعترفي بمشاعرك، مع أنك تبدين رائعة وأنت غاضبة.

أشعل قربها منه أحاسيسه وهما يتكلمان. لكنها تحركت مبتعدة،

وتحول الدفء إلى حريق غاضب في لحظة. . أطبقت يداه على الغطاء الأزرق، يقاوم التهور. . والحاجة إلى لمس هذه المرأة التي تعذّبه بقربها.

ـ فيليستي. .

كان هذا كل ما استطاع قوله بصوت أجش.

فكرت فيليستي بضبابية. . . عادت تلك اللكنة المثيرة التي تحوّل اسمها إلى صوت مثير غريب.

فايليسييتي.

ودارت الكلمة حول رأسها كتعويذة سحرية. . فايليسييتي، أي هي. لكن وبطريقة ما، شخص آخر تماماً. شخص مجهول ومغر، أسلوب حياته مختلف تماماً عن وجودها الواقعي، شخص يصلح ليكون شريكاً لهذا الرجل الخبيث، الخطير، المثير للاضطراب وقاطع الطرق. رجل خارج عن القانون عيناه سوداوان. . و. .

لا! النظر إلى عينيه أمر خطر، إنه مخاطرة لا تستطيع تحملها.

يعني هذا أن تتذكر. . تتذكر كيف أنه ليلة أمس، نظر إلى وجهها بمثل هذه الطريقة تماماً. ويعني تذكر الإحساس بعناقه بالرغم من جهدها في إبعاده عن تفكيرها.

من المستحيل أن تنسى عناقه الذي حفر مقراً في ذاكرتها، وتمكنت من أن تقول بصوت متحشرج: «ريكو. . .».

لم تكن واثقة من تحرك أولاً. . أو ربما تحرك كلاهما معاً، وقد دفعهما التهور الملح ذاته.

كان عناقه قاسياً متطلباً وواثقاً. جاءت تلك الثقة المتعجرفة صادمة في البداية بحيث أن فيليستي قاومتها لثانية فقط.

ـ فيليستي. . بيليزا!

كانت تمتمة فجة خشنة في شعرها. وأخذ يعانقها بشوق وقوة، فدنت منه أكثر وسقطت مقاومتها في خضم المشاعر الجارفة. ولم يعد هناك في الوجود سواهما.

مدت يديها لتشبك أصابعها في خصلات شعره الأسود الناعم.

ما الذي يفعله بحق السماء؟

تراجع ريكو فجأة، بعد أن أدرك ما يفعله.

بِمَ كان يفكر بحق السماء؟ هل فقد عقله؟ هل استنزفت الساعات الأربع وعشرين الماضية كل قطرة تعقل من دماغه؟

من هو؟ راشد ناضج واع أم مراهق تسيطر عليه غرائزه؟

وخرجت أنفاسه منه في تنهيدة عدم تصديق لحماقته.

في البداية، لم يكن يريد أي شيء من هذا. لكن الجميع يخطىء؟

كانت الفكرة أشبه برمي مياه باردة في وجهه، فاستيقظ دماغه، ولو بغير ارتياح. زاد تململه، فلم يعد قادراً على البقاء في مكانه، وتحرك لينظر من النافذة إلى الجانب البعيد من الغرفة.

وبخ نفسه: أيها الأحمق.. وضرب قبضته على الجدار بقوة دلالة غضب شديد. أيها الأحمق اللعين الأبله!

قطبت فيليستي بارتباك لتصرّفه المفاجئ وابتعاده عنها، بعد أن ضمّها بهذا الشوق الغامر. وأحست بفراغ غريب.

وعندما أدركت الواقع صدمت فانتفضت وعيناها الرماديتان قد أظلمهما رعب مصدوم، للموقف الذي وجدت نفسها فيه.

أوه.. ماذا فعلت؟ كيف خرج الموقف عن السيطرة؟ كيف يمكن لها..

وتمكنت من أن تقول بارتجاف: «أنا.. لقد..».

ورفعت يداً غير ثابتة لترجع إلى الوراء خصلات شعر أشقر وقعت إلى الأمام فوق عينيها.

وفي اللحظة ذاتها، تحرك ريكو فسقط نور الشمس المباشر عليه، ولأول مرة استطاعت أن ترى وجهه بوضوح وسمّرتها نظرة الاحتقار الحارقة في تعبيره.

استطاعت تقريباً قراءة أفكاره وسماع التعليق الساخر يتشكل على

شفتيه بوضوح. وقالت لنفسها إن كبريائها تجبرها على النظر إليه من خلف قناع بارد غير مكترث، وصلت كي يرى القناع حقيقياً.

قال بخشونة: «تبدين بحال سيئة تماماً كما أشعر».

ودفع يديه في أعماق جيبي الجينز ووقف وكتفاه منحنيتان قليلاً، في منتصف الطريق بينها وبين الباب.

ـ أتحاول أن تقول لي إن هذا ما كان يجب أن يحدث؟

لراحتها الشديدة، كان للسيطرة التي تفرضها على جسمها تأثيرها على صوتها كذلك، فقد بدت كما تمنت باردة غير مكترثة تماماً.

قال: «كلانا يعرف أنه ما كان يجب أن يحدث ما حدث».

كانت فيليستي باردة، أما ريكو فبدا جليدياً بكل تأكيد.

ـ كانت غلطة لا أنوي تكرارها.

ـ لا أذكر أنني عرضت عليك فرصة التكرار! فأنا نادمة بكل تأكيد، بقدر ما..

قاطعها ريكو بنعومة: «أوه.. أنا لم أقل إنني نادم..».

وانخفضت النظرة الآبنوسية إلى وجهها المصدوم. جعلت النظرة في العينين القاتمتين اللامعتين بشرتها تتحول في ثانية من الحرارة المحرقة إلى البرد القارس ثم لتعود مرة أخرى إلى الحرارة، مما جعلها تشعر بعدم ارتياح مزعج.

ـ لكن هذا يعقّد الأمور دون ضرورة، وهذا شيء لا أريده.

ـ يعقد..

كان هذا كل ما استطاعت فيليستي قوله، ودارت أفكارها مترنحة مصدومة. هل هذا كل ما هي بالنسبة إليه؟ تعقيد؟ واعتراها الحرج مما صدمها.

وتمتمت بمرارة: «أوه.. بالطبع! أنت لا ترغب في أن تفسد خطتك الذكية الصغيرة، بشيء غير متوقع كالمشاعر مثلاً».

ـ مشاعر؟

بدا وكأنه لم يفهم معنى الكلمة: «وما دخل المشاعر في هذا؟».

ـ حسن جداً! لا دخل لها بالنسبة لك!

لن تسمح له أن يرى ما يفعله بها. لا يجب أن تدعه يرى كيف تطعن كل كلمة يتلفظ بها مشاعرها، وتقطعها إلى قطع صغيرة نازفة.. والشيء الأسوأ كان أنها لا تستطيع فهم سبب ألمها الشديد هذا.

على أي حال، ريكو لم يكن شيئاً بالنسبة لها. إنه أشبه بغريب، رجل عرفته لتوها ولأقل من أربع وعشرين ساعة. رجل أثبت أنه قادر على الانتقام بدم بارد من شخص يكرهه ولأي عذر كان. وكان هو مستعداً لاستخدامها كجزء من خطته. وهي تعرف كيف هو، لذا فظهور دليل جديد يدل على قسوة قلبه، ما كان يجب أن يصدمها. وجب عليها أن تتوقع هذه القسوة، وأن تحضر مشاعرها ضدها.

لكن، بطريقة ما لم تستطيع حتى إقناع نفسها بأن الأمر بسيط هكذا.

وتابعت، والعذاب الداخلي يزيد حدة إلى كلماتها.

ـ عناقك ما كان سوى متعة مؤقتة..

أجفل.. أجفل فعلاً، ولثانية فقط، وكأنما قرف من كلماتها.. جنّت للنفاق الذي بدا في رد فعله، ومنعها الغضب من التفكير بحرص.

ـ وهل صدمك هذا؟ أوه هيا الآن حبيبي...

لم تعتقد يوماً أنها ممثلة، لكن بطريقة ما، جمعت قوتها ومثلت بطريقة مقنعة الدور الذي حضرت نفسها له. وارتفع ذقنها عالياً بعناد، واحمرت عيناها الرماديتان بتحدٍ، وأصبح صوتها ينقط ثلجاً وهي تخزه متعمدة.

ـ نحن في القرن الواحد والعشرين، والنساء تحررن منذ عقود، ونحن نستمتع بالحرية ذاتها التي تستمتعون أنتم الرجال بها.

قاطعها ريكو وسط كلامها: «عليك أن تعرفي أنه يناسبني جيداً أن تشعري هكذا. على الأقل أعرف أنني لن أنزعج من أيّ مشاعر غير مرغوب فيها من جهتك..».

لقد حذرته ماريا من أنّ هذه المرأة ليست ملاكاً، بل مرتزقة رأت في الزواج من ادوارد ڤيتابيلز، طريقاً سريعاً إلى الثروة، ومكانة مرموقة في المجتمع. أولم يقل له التحري الخاص الشيء ذاته في تقاريره التي قدّمها؟ تقارير تعطي تفاصيل عن رحلات فيليستي المنتظمة إلى ناد ليلي سيء السمعة حيث تقضي أمسيات طويلة، ولا تظهر حتى ساعات فجر الصباح التالي.

لقد تناسى تلك الأمسيات حين وقع تحت رحمة مشاعره. لكنه يعرف الآن شيئاً مختلفاً، ولقد علمه كلام فيليستي الجريء كم كان مخطئاً حين أعماه وجه جميل، وألهاه سحرها الذي لا ينكره. كان هذا درساً يحتاجه، لكنه درس لن ينساه أبداً.

ـ على أي حال، كلانا راشد.

ـ بالطبع.

وتألمت حنجرة فيليستي من الجهد الذي تمارسه لإبقاء صوتها ثابتاً. وكانت تشعر متألمة بأن جهودها للسيطرة على أعصابها، جعلتها تبدو أكثر قسوة وخشونة. لكن شعورها تناقض مع مظهرها.

وبعد أن انكسر السحر الذي قيّدها، وأقنعته بكلام لم تكن مقتنعة به بل قالته لتنقذ نفسها من شعور المذلة والعار الذي تملكها، أحست أنها أقوى، وزادت ثقتها بنفسها، فتمكنت من إرسال ابتسامة باردة متكبرة في وجه ريكو المتجهم.

وأكملت: «كلنا مررنا بتجربة مماثلة، حيث عانقنا أشخاصاً غير مناسبين... إنها غلطة نخجل بها فيما بعد».

ـ هذه طريقة ناضجة للنظر إلى الأمر.

أشارت رنة صوت ريكو إلى العكس تماماً. وأكمل: «إذن.. هذا ما كان بيننا.. عناق عابر.. غلطة لن تتكرر؟».

ـ تقريباً.

ـ وأفترض أننا راشدان وسننسى ما حدث.

جعلتها السخرية السوداء في رنة صوته تجفل.

وقالت: «أعتقد أن هذا سيكون أفضل حل».

كانت ابتسامتها قصيرة مشدودة، غير صادقة أبداً.

الحلّ الأفضل بالنسبة إليه هو أن يأخذها بين ذراعيه ويعانقها مجدداً، حتى ينسيا العالم بأسره، كما حصل منذ قليل، قبل صحوة الضمير.

يا إلهي.. لا! وانتزع أفكاره ليعيدها تحت السيطرة، ووضع على وجهه ابتسامة مائلت ابتسامتها في النفاق.. فهو لم يتعرض لرفض امرأة بمثل هذه الطريقة من قبل.. في الواقع لم يُرفض أبداً.. وهذه تجربة لم يستمتع بها. جعله هذا الشعور يرغب بالهجوم، ولو كلامياً على الأقل.

ـ يجب أن أعترف أنني حين قررت التصرف على هذا النحو، لم أدرك كم سيكون هذا مؤثراً. كنت أعرف أن ڤيتابيلز سيستشيط غضباً لخسارته عروسه. لكنني لم أخمّن أبداً ما سيفتقد. ولا أستغرب أبداً استعجاله في الزواج هكذا.

ظنت فيليستي أنه يستحيل أن تسوء حالتها أكثر، وأن لا شيء قد يقوله ريكو أو يفعله سيجعلها تشعر أنها فاسقة وفاسدة أكثر مما تشعر به الآن. لكن عدم الاكتراث القاسي الذي رماها به والذي ذكرها بسبب وجودها هنا، جاء مؤلماً كما لو كانت كلماته تهجماً فعلياً.

ـ وهل هذا هو السبب الوحيد الذي جعلك.. تعانقني؟

لم تستطع إجبار لسانها على النطق بهذه الكلمة رغم أن حياتها متعلقة بها. لكنها تجسّد ما حدث بينها وبينه.

وسألت: «هل هذا انتقام من ادوارد لما تعتقد أنه فعله بك؟».

ـ أوه.. لا كويريدا.

كانت ابتسامة ريكو شيطانية، وقد جعلها اللمعان البارد في عينيه ترتجف لرؤيته.

وأكمل: «الانتقام من ڤيتابيلز ليس كل ما في الأمر. سررت كثيراً. وأود حقاً لو أكرر هذا العناق».

www.liilas.com/vb3

ـ حسن جداً، لا تخدع نفسك ففرصة واحدة أكثر من كافية بالنسبة لي.

رافقت كلماتها هزة كتف أنيقة، جاءت بليغة في وقعها أكثر من أي كلام.

ـ والآن إذا كنت لا تمانع، أرغب في أن أغتسل..

أرادت أن تغسل كل أثر لعناقه ولقربه منها، ولم تكن مضطرة لصياغة هذا الإحساس بالكلمات، إذ أنه بادٍ على وجهها المتجهم وفي عينيها الباردتين كالبحر في يوم مكفهر.

ـ تفضّلي.

بكسل، تحرك في الغرفة. سيغادر حين يشاء، ولن يترك نفاد صبرها الظاهر، والشرارات الغاضبة في العينين الرماديتين الواسعتين، تدفعه لفعل شيء ليس مستعداً للقيام به.

ـ سأحضر لنا القهوة وشيئاً نأكله..

ولسوف يعلق الطعام في حلقها، ويخنقها، لو اضطرت أن تجلس قبالته وتأكل شيئاً، واضطربت معدتها لمجرد التفكير في الأمر. لكن، مرة أخرى، تمكنت من إبراز تلك الابتسامة المشدودة الخشنة، ولو أنها لم تستطع إجبار نفسها على الالتقاء بعينيه الآبنوسيتين العميقتين.

ـ عظيم.. افعل هذا.. ربما بعدئذ تصبح مستعداً لتحافظ على وعدك.

ـ وعد؟ لا أذكر..

كشف عبوسه السريع عن عدم فهمه.

ـ قلت إنني إذا لم أقدم على عمل غبي كمحاولة الهرب ليلاً، فستتركني أذهب هذا الصباح.. اليوم.

وأدركت بألم أن الوقت تجاوز الظهر بكثير. وكان ما قاله السبب الوحيد الذي أبقاها في غرفتها طوال الليل، فهي لم تحاول حتى التجول في المنزل، لتفتش عن وسيلة هرب. وقد صرفت عنها فكرة تسلق نافذة

غرفتها.. بعد أن نظرت إلى الخارج وأدركت كم يبلغ الارتفاع. رؤية المسافة التي قد تقع منها لو انزلقت، كانت كافية لجعلها ترتجف.

ـ أنا لم أعدك بشيء.. لقد قلت ببساطة، لو أن الأمور سارت حسب الخطة فسأفكر بتركك تذهبين.

ـ لكن الأمور سارت جيداً؟ أليس كذلك؟

هزة الكتف الخفيفة التي رفعت عضلات الكتفين القوية، أوحت بعدم اكتراثه لسؤالها.

وتشدق ساخراً: «ليس لدي فكرة. لم يكن لدي وقت لأتحقق. لقد كنت.. مشغولاً جداً».

مرة أخرى توجهت عيناه السوداوان إلى وجهها ولانت لهجته وتعابير وجهه، كانت الابتسامة القشة الأخيرة.

وانفجرت: «إذن تحقق، اللعنة عليك. أريد الخروج من هنا بأسرع وقت ممكن».

لم تعد تطيق صحبته، فاستدارت على عقبيها ودخلت بسرعة إلى الحمام الملحق بالغرفة وصفقت الباب وراءها وأقفلته خلفها بإحكام.

* * *

٧ ـ رجل بوجهين

دفعت فيليستي باب المطبخ تفتحه، وتطلعت إلى الداخل بقلق. لم تكن واثقة أبداً من مزاج ريكو بعد الطريقة التي تركته فيها في الطابق الأعلى.

كان قد غادر غرفتها حين خرجت من الحمام.. فبدت ممتنة لحصول هذا. فبعد ما حدث لم تكن تستسيغ فكرة مواجهته سريعاً مرة أخرى.

لكن الغرفة كانت فارغة وصامتة، والفراش مرتباً بشكل يثير الدهشة، والوسائد منفوخة والغطاء ممهداً بحيث لم يبق دليل على أنّ أحدهم نام فيه.

تمنت لو تستطيع ترتيب ذاكرتها وحياتها بمثل هذه السهولة. هكذا فكّرت فيليستي وأعصابها تتلوى بينما كان ريكو يلتفت من المكان الذي يقف فيه قرب الفرن، وعيناه السوداوان تطوفان عليها بتقييم سريع.

قال بصوت هادىء مدهش: «بدأت أتساءل أين كنت. ظننتك ضللت طريقك إلى هنا».

ـ أو أنني قفزت من النافذة ربما، وحاولت الهرب؟ فكرت بالأمر.. صدقني، وجربت فتح كل باب وجدته.

ضحك ريكو: «عرفت أنك ستفعلين هذا. لذا تأكدت من أن كل الأبواب موصدة قبل نزولك. وفي حال تساؤلك عن مكان المفاتيح..».

وربتت يده على جيب بنطلونه الجينز الأمامي ليصدر عنه صليل المعدن.

حسن جداً، إذا كان من مكان آمن حقاً للمفاتيح فهو هناك. والتوى فم فيليستي بسخرية، فهي ليست مستعدة لأن تبحث عنها في جيبه. وانتزعت أفكارها من مسارها دون شفقة وأجبرت نفسها على التركيز.

ـ ماذا ترغبين أن تشربي؟ قهوة؟

ربما شراب ساخن سيدفئها، ويخفّف بعضاً من التوتر الذي تملّكها بالرغم من حرارة اليوم.

ـ سأحضرها بنفسي.

ـ لا.. اجلسي.. سأحضرها أنا.. فيليستي.

وأضاف بتركيز بعد ترددها: «اجلسي! يمكنك أن تسترخي.. أنا لن أسممك».

ـ ربما لن تسممني، لكن كيف لي أن أعرف أنك لن تدس شيئاً في شرابي.

صاح ريكو: «يا إلهي!».

ومرر كلتي يديه في شعره الأسود: «قلت لك إنني أقدمت على هذا مرة واحدة، ولسبب طارىء، وأنت آمنة تماماً».

كانت النظرة التي أدارتها فيليستي نحوه متشككة. فكلمة «الأمان» وريكو ڤاليرون أمران لا يتماشيان معاً. على الأقل ليس بالنسبة لها. لكن شيئاً واحداً اضطرت إلى إدراكه في الأربع وعشرين ساعة الماضية، وهو أن الخطر العاطفي الذي تشعر به تجاه هذا الرجل، أكبر بكثير من أي خوف جسدي قد يتملكها.

تابع ريكو وهو يضع القهوة الجافة في الآلة ويضيف إليها الماء: «لقد وجدت الثياب النظيفة إذن».

ـ أجل.. شكراً.

وأجبرت نفسها على قول هذا. فقد كان عليها أن ترتدي شيئاً، إذ أنّ فستان العرس الحريري ليس عملياً أبداً. كما أنها كانت تشعر بأنها منافقة تماماً وهي ترتديه الآن.. وقد بَعُدَ توقعها الزواج من ادوارد بُعد القمر.

ليلة أمس، عرض عليها ريكو بعض ثيابه.. قميص تيشيرت آخر وبنطلون جينز.. وقبلت العرض بامتنان. واليوم، حين خرجت من الحمام، بعد أن فركت جسمها بقوة ووقفت تحت الرذاذ الساخن لأطول مدة ممكنة، وجدت مجموعة أخرى من القمصان مطوية بترتيب على الكرسي، تنتظرها.

ـ اللون يناسبك، والمقاس يمكن أن يكون أسوأ من هذا.

ـ إنه سيء لو فعلت هذا..

وهزت ذراعيها إلى الخارج بحيث أن الكمين المطويين إلى الخلف من القميص وصلا إلى يديها النحيلين، وتدليا باسترخاء من نهاية أصابعها.

ـ يمكنك وضع اثنين من مقاسي داخل هذا. لا بد أنني أبدو.. كصبي يرتدي ثياب أخيه الأكبر.

قال بصوت انخفض فجأة: «يعجبني».

طارت عيناها الرماديتين كالحمام نحو وجهه بسرعة. وما رأته هناك جعل الدم يجف من وجهها، ثم يعود بسرعة.

وقالت بحدة: «لا! لا!».

ـ لا.. أعتذر.

جاءت رنة صوته سطحية، لا تكشف عن شيء. واستدار بغتة، يشغل نفسه بإحضار فنجانين كبيرين من الخزانة.

وتساءلت فيليستي: هل ستفهم يوماً الأمور جيداً؟

استرخت على أقرب كرسي، تركز على طوي كمي القميص مجدداً إلى مستوى المرفقين.. أستستطيع يوماً أن تجري حديثاً مع هذا الرجل دون أن يخطو أحدهما إلى الفخ الكبير، الفاغر الفم، المنفتح تحت أقدامهما مع كل جملة يقولانها؟

لكن، لِمَ تريد أن تتكلم معه؟ ألن تكون آمنة أكثر لو بقيت على مسافة حذرة طيلة الفترة التي ستقضيها برفقته؟ وبهذه الطريقة قد يكون لها بعض

الأمل بالخلاص من هذا الموقف بأمان.

لكن الحقيقة هي أن ريكو يذهلها ويثير مشاعرها. لقد نفرت من الطريقة القاسية الباردة الدم التي اقتحم فيها حياتها، ورماها في دوامة كي ينتقم من ادوارد.. لكن في الوقت عينه هناك أوجه أخرى منه تؤثر على مشاعرها، وتشدها إليه كإبرة المغناطيس.. إنه رجل التناقضات.. بحيث لم تستطع معرفة من هو ريكو الحقيقي.

ليلة أمس، مثلاً، حين أدركت الفخ الذي نصبه لها، وعرفت الكذبة التي لفّقها، وصرعها ما أدركته فبانت يائسة، تحول فجأة من نذل لا يرحم إلى رجل آخر مختلف تماماً.

كانت في الغرفة التي أوصلها إليها، ونامت فيها. اقترح ريكو أن تريح نفسها وتركها لتغير ثيابها وترتدي الثياب التي قدمها لها.

سبّب الخمار مشكلة، إضافة إلى الزينة الدقيقة للتاج الصغير. كان كلاهما مشغولاً بدقة في محله، ومثبتاً بعدد كبير من الدبابيس، وثبت لها أن إزالتهما أبعد من منالها.

كانت هذه هي المحاولة الأخيرة.. وتغلب عليها الإرهاق واليأس، وتوقفت عن المحاولة، وجلست على حافة السرير تحدق إلى المرآة دون أن ترى شيئاً.

هكذا وجدها ريكو.

ـ فيليستي؟ آنسة هاملتون؟

ولم يلق دقه على الباب رداً، فدفع الباب ودخل الغرفة، واتجهت عيناه فوراً إلى وجهها الشاحب المتعب.

وسأل بحدة: «ما بك؟».

ودون ادعاء، رفعت يديها لتشير بهما إلى غطاء الرأس المزخرف، وهي تشد على أصابعها في إيماءة تنوط نافذة الصبر.

قالت معوّلة: «إنه هذا.. هذا الخمار اللعين! لا أستطيع انتزاعه. أعتقد أنني مأسورة فيه إلى الأبد!».

توقعت أن يضحك، أو أن يقوم بتعليق نافد الصبر عن سخافة النساء. إلا أنه لم يفعل أياً من الأمرين، بل هدأ من مزاجها المنزعج، وطمأنها بصوت ناعم، وبدأ العمل بسرعة وكفاءة.

كان لطيفاً بشكل لا يصدق. بدا وكأن لمسته سحرية. وأصبحت الدبابيس جانباً. وفي خلال ثوان، نزع الخمار ورماه جانباً، ورفع التاج من على رأسها ووضعه بحذر على طاولة الزينة.

وتمتم: «أنت متوترة بشكل رهيب».

ردت فيليستي عليه: «وهل يدهشك هذا؟ أعني، أنا أقضي وقتاً رائعاً! فمن المفترض أن تكون هذه ليلة زفافي.. وبدلاً من ذلك ها أنا في مكان لا يعرفه سوى الله، مع رجل.. هو.. هو..».

وتكسر صوتها، ليموت بألم، مع تشتت سيطرتها على نفسها تماماً، وتجمعت الدموع في عينيها، تلمع في نور المساء.

ـ ماذا.. ماذا ستفعل بي؟

ـ لا شيء.

كانت لهجته منخفضة ومؤثرة.. ومد يده يمسك وجهها بين يديه ويضع كفيه الدافئين على خديها الناعمين.

ـ لا شيء! أقسم لك غاتيتا أنك لن تصابي بأذى. فخلافي ليس معك، لكن مع الرجل الذي من المفترض أن تتزوجيه، كل ما أريده منك أن تبقي هنا إلى أن تحل بعض الأمور.

ـ أي نوع من الأمور؟

انزعجت جداً لأنها أرادت تصديقه.. وصدمت لإدراكها أنها على وشك أن تصدّقه. كان لذلك الصوت ذا اللكنة المحببة رنين الإقناع الكامل. وكانت العينان السوداوان كالقهوة تحرقان عينيها، وكأنما تحثانها على الاقتناع بأنه يقول الحقيقة.

ـ ما الذي يجب أن يُحل؟

بدا واضحاً أنه لن يجيب على هذا. وظهر رفضه لسؤالها على وجهه،

فبرّد النيران في العينين القاتمتين، وغيّر تعابيره بسرعة.

ـ ليس ضرورياً أن تعرفي هذا. فهذا شأني ولا دخل لك به. كل ما عليك أن تعرفيه هو أنك آمنة تماماً. وإذا كنت متعقلة، وفعلت ما أقوله لك، من دون أن تحاولي شيئاً غبياً كمحاولة الهرب ليلاً، فقد تجدي أن أسرك هنا لن يدوم أكثر من يوم واحد.

يبدو أن هذا هو الحق الوحيد الذي يريد ريكو منحه.

وتمكنت من أن تقول، غير مستعدة للتنازل: «سأفكر بالأمر».

تمتم بصوت لطيف: «فكري.. فكري يا عزيزتي فيليستي. وربما ستتمكن على الأقل، إذا لم يكن هناك سلام بيننا، من أن تصل إلى نوع من التفاهم نعيش به معاً».

وهو يتكلم تحركت يداه واندستا في خصلات شعرها المنفلت. ودعكت أصابعه القوية جلدة رأسها، تلين العضلات المشدودة التي بدت كرباط فولاذي حول رأسها، إلى أن تنهدت براحة متعبة.

***

ـ القهوة.

أجفلت فيليستي واستفاقت من ذكرياتها عندما وضع ريكو فنجان قهوة كبير يتصاعد منه البخار على الطاولة أمامها.

ـ شكراً.

قاومت لإجبار دماغها على التركيز على الحاجز. فقد ارتكبت هذه الغلطة في وقت سابق. وتركت ذاكرتها بضعف وغباء تفكر كيف يمكن أن يلهيها ريكو بلطفه. وتركت حذرها في لحظة ضعف، واستغل هذا الواقع تماماً.

ـ ماذا تريدين أن تأكلي؟ كنت سأعرض عليك الفطور، لكننا أصبحنا عند الظهر.

ـ أي شيء.. أنا لست جائعة حقاً.

وبدت كقطة صغيرة شاردة، تجلس منحنية في مقعدها، في القميص الواسع والجينز، فأجفل ريكو إذ أنبه ضميره. ومع بشرتها الجميلة،

الخالية من التبرج وشعرها الناعم الأشقر المنفلت حول وجهها، بدت كظل المرأة التي كانتها بالأمس. المرأة التي قاومته في كل إنش من الطريق باستثناء لحظة واحدة ليلة أمس حين تخلت عن حذرها. وأخذ يلعن من بين أسنانه بعد أن عاد ضميره ليؤنبه.

ـ يا للجحيم!

جعلته فيليستي هاملتون يشك جدياً بحقيقة رواية أخته غير الشقيقة. ولو لم يقطع وعوداً لا يستطيع الحنث بها، لوضع فيليستي في السيارة في الحال وأوصلها مباشرة إلى منزلها، وعائلتها.. مع ذلك..

أخذ يحرك قهوته بقوة لا لزوم لها.. هناك وجهان متباعدان لفيليستي هاملتون، وهو لا يعرف أي وجه يثق به.

لو أنه فقط يستطيع الاتصال بماريا، فقد يتمكن من استيضاح هذا الأمر المشوش. لكن، في كل مرة يتصل فيها يقال له إن الهاتف النقال الذي يطلبه، خارج الخدمة.

ـ ستحفر ثقباً في أسفل الفنجان لو حركت القهوة أكثر من هذا.

كانت لمحة المرح الخفيفة والابتسامة الصغيرة على الفم الناعم آخر شيء يتوقعه. وقد أزعج ضميره وميض نور العينين المتعبتين، ودفعه إلى العمل.

ـ هاك..

ورمشت فيليستي بارتباك مع وضعه للهاتف النقال على الطاولة أمامها.

ـ ماذا..؟

أمرها ريكو بخشونة: «اتصلي بوالدك، واعرفي ما حدث».

ـ أتصل..

ولم تستطع أن تصدق ما تسمع. هل سيتركها حقاً تذهب هكذا؟ أوه.. تعلم أنه وعدها، لكنها لم تصدقه حقاً.

ـ إذا كانت الأخبار جيدة، فستكونين في طريقك إلى منزلك.

www.liilas.com

ـ وما هي بالضبط الأخبار الجيدة؟

كانت هزة كتفه مختصرة، وصارفة النظر.

ـ قولي لي ما سيقوله والدك، وسأقول لك إذا كان جيداً.

ـ حسن جداً.

كافحت لتبدو غير مبالية، وهو أمر بعيد تماماً عن إحساسها. فقد كان عدم اكتراثه، والارتباك في عينيه وفي وجهه يلذعانها أكثر. هل يهتم حقاً بهذا القدر القليل، لكونها مغادرة؟

أوه.. واجهي الوقائع فليس! ووبخت نفسها بحدة. وماذا تتوقع غير هذا؟ إنها تعرف ما هو هذا الرجل.

مرتزق ولص. خطفها ليعاقب خطيبها، والآن يريد الخلاص منها. لكنها ستكون ملعونة لو تركته يدرك ولو لثانية، ماذا يفعل بها.

وأذهلت نفسها بتمكنها من الابتسام، ولو أنها ابتسامة واهية.

ـ حسن جداً إذن، آمل بأن تكون الأخبار جيدة.. وذلك لمصلحتنا معاً.

ولوت تلك الابتسامة أعصاب ريكو بحدة.. أعليها أن تبدو مبتهجة بهذا القدر.. ومتحمسة للذهاب؟ لكن، ماذا يتوقع؟ أن تتوسل إليه كي يتركها تبقى؟

ـ أبي.. هذه أنا فليس.. ماذا؟ أوه أجل.. أنا بخير، وكيف تسير الأمور معك؟.. ماذا؟

وكافحت لتسمع كلمات والدها رغم الهدير الذي أحست به في رأسها، شعرت أنها غير قادرة على تصديق ما تسمع. واستدارت عيناها الرماديتان المصدومتان إلى وجه ريكو المراقب، وتصادمت بحدة مع نظرته الباردة.

هل يعرف هذا؟ ماذا تعني هذه الأخبار بالنسبة لموقفها؟ والأكثر أهمية، هل سيعتبر ريكو هذه الأخبار جيدة أم سيئة؟

وبطريقة ما تمكنت من انهاء الحديث، واعدة أن تتصل مرة أخرى في

أسرع وقت ممكن. وحين أطفأت جهاز الهاتف، جلست ببساطة تحدق في الجدار المقابل من دون أن ترى.. وألف فكرة تدور في رأسها. سألها ريكو ما إن أطفأت الجهاز:

ـ حسناً؟

ـ أنا لا أفهم.. أبي يقول إن ادوارد اختفى.. وإنه هرب مع امرأة أخرى..

لم يبدُ الخبر أكثر صدقاً بعد أن قالته. ولم تستطع حتى أن تعرف ما إذا كان ريكو سيعتبر كلامها خبراً جيداً أم العكس فوجهه لم يكن يعبر عن شيء، ولم تفهم ما قاله باللغة الاسبانية عندما تلقى الخبر.

واحتجت: «ماذا تقول ريكو؟ لا تفعل هذا بي! أنت تعرف أنني لا أفهم الاسبانية.. ماذا تقول؟».

لكنه تجاهل سؤالها ببساطة، وركز فقط على الشيء الوحيد المهم بالنسبة إليه.

ـ تلك المرأة..

وتقدم إلى الكرسي الذي جلست عليه، وأراح يداً برونزية على ظهر المقعد، والأخرى على الطاولة إلى جانبها، وأسرها بهذا في مكانها.

ـ هل لها اسم؟ هل قال والدك من هي؟

ولِمَ يهمه هذا كثيراً؟ لأنه مهم على ما يبدو.. وهذا ما كان واضحاً في عتمة عينيه.

ـ أ.. أجل.. لقد قال، اسمها ليلولين.. ماريا ليلولين.

وما لم تقله هو إنها سمعت هذا الاسم من قبل لكن أين...

لكن، بدا أن ريكو ليس بحاجة إلى سماع المزيد منها. وبدلاً من ذلك امتلأ وجهه بالرضى وهز رأسه بالموافقة بحدة لما سمعه.

وخفف من وقفته التي كان يحتجزها بها.

ـ حسناً! هذا ما كنت أريده.

كانت أفكارها مشوشة ولم تستطع فيليستي إلا أن تراقبه بصمت.

ماذا يريد بالضبط؟ لقد ضاعت. ماذا يريد؟ كانت تظن أن غضبه كله موجّه ضد ادوارد، وأنه يريد أن يعاني ادوارد من كل هذا.. لكن، الآن، يبدو أن خبر وجود امرأة أخرى في حياة ادوارد أرضاه. هذه المرأة هي الشخص الوحيد الذي سمعت فيليستي باسمها من خطيبها السابق، وقد تكلم عنها بدفء حقيقي.. المرأة التي اعترف لها أنها سرقت قلبه.

إذن، ريكو يرغب حقاً في أن يكون ادوارد سعيداً؟ وإذا كان الحال هكذا، فما هي المضاعفات عليها وعلى والدها؟

تمكنت من أن تقول، غير قادرة على تصديق ما يجري: «هذه.. هذه أخبار جيدة؟».

هز ريكو رأسه بثبات، وسمح لنفسه بابتسامة شكر صغيرة.

ـ الأفضل.

ـ لكن..

أحست وكأن عالمها انقلب رأساً على عقب، من الداخل إلى الخارج.. فإذا لم يكن يسعى إلى الانتقام من ادوارد، فمن هي الضحية إذن؟

هل كان كل هذا أمراً شخصياً أكثر مما أدركت؟ هل كان حقاً يسعى وراءها منذ البداية؟

ـ أنا لا أفهم.

لم تخفف النظرة التي أرسلها ريكو نحوها من حدة أفكارها التي تدور في دوامة، ولا من الذعر المتعاظم مع الثواني، والذي يهدد بإغراقها تماماً.

ـ لا داعي لأن تفهمي عزيزتي. اتركي هذا لي.. كل ما تحتاجين معرفته هو أن هذه أخبار جيدة لك أيضاً. لقد انتهت فترة احتجازك.. ويمكنك العودة إلى منزلك اليوم.

* * *

٨ ـ صفقة خاسرة

«يمكنك الذهاب إلى منزلك اليوم».

هكذا بكل بساطة.

هل هذا ممكن؟ أم أنه يتلاعب بمشاعرها بقسوة كما تلعب القطة مع الفأرة قبل أن تضربها الضربة القاضية؟

ـ وهل تعني هذا؟

ـ أعنيه؟

بدا ريكو مصدوماً لأنها سألت: «بالطبع أعنيه. لِمَ أقول شيئاً إذا كنت أعني شيئاً آخر؟».

مع ذلك لم يبدُ الأمر حقيقياً. ولم تستطع أن تتصور السبب الذي دفعه إلى تحمل متاعب احتجازها، وإبقائها هنا ليتركها بعد ذلك تذهب بسهولة وسرعة هكذا.

وفتح درجاً، ليخرج منه سكينين وشوكتين.

ـ تستطيعين المغادرة ساعة تشائين. لكن، من الأفضل أن تأكلي شيئاً أولاً.. ثم تذهبين إلى بيتك.

الذهاب إلى البيت.

كانت هذه الجملة، لتبدو ليلة أمس كأروع الكلمات في العالم. لكنها اليوم، بدت وكأنها القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير.. بدت فيليستي وكأنها تلقت لطمة قوية على وجهها حتى أنها لم تعرف بماذا تفكر.

كل ما كانت تعرفه أن الذكريات تتجمع في رأسها، وتدمر أي بهجة

قد تشعر بها لفكرة عودتها إلى بيتها، ممّا جعلها يائسة وبائسة.

تذهب إلى البيت؟ إلى ماذا؟ إلى الورطة التي ورّط والدها نفسه فيها لترى الشرطة تقبض عليه بتهمة الاختلاس؟ ولتراقب أمها، الضعيفة أصلاً والمريضة، تزداد سوءاً نتيجة الصدمة؟

وماذا عنها هي؟ ما الذي يخبئه المستقبل لها؟ بلا ادوارد.. بلا زواج.. بلا ريكو.

وتجمعت دموع ساخنة مريرة في عينيها، تغشى نظرها. ولم تستطع تحمل فكرة أن يرى ريكو الدموع.. فدفعت كرسيها إلى الوراء، بصوت صرير بشع على الأرض، ووقفت بارتباك واتجهت إلى الباب.

ـ فيليستي!

كان صوت ريكو حاداً ومؤنباً: «أين تظنين نفسك ذاهبة؟».

أبقت رأسها منخفضاً، وتمتمت: «لأستعد.. لقد قلت إنني أستطيع الذهاب».

أجل.. لقد قال إنها تستطيع الذهاب.. لكن أعليها أن توضح هكذا أنها لا تستطيع الانتظار للخروج من هنا؟ وأنها يائسة لتدير ظهرها وتغادر؟

لكن ماذا يتوقع غير هذا؟ سيكون من الغباء أن يفكر بأن تجاوبها معه نابع عن مشاعر تكنّها له.. لقد صدمته رغبته فيها.. ولا يزال يرغب فيها، إنها رغبة فقط...

مع ذلك، وبطريقة ما، لا يمكنه رؤيتها تتركه هكذا.

ـ لا تستطيعين..

يا إلهي.. ماذا حل به؟ هل سيتوسل إليها حقاً لتبقى؟ وبسرعة أعاد تركيز رنة صوته.

ـ أنت لم تأكلي بعد.

ـ لست جائعة.

لسوف يخنقها الطعام. ولن تتمكن من تمريره عبر العقدة الصلبة القاسية التي تشكلت في حلقها، لتقفله. ولو بقيت، فقد يرى ريكو غلالة

الدموع في عينيها ويعرف أن تظاهرها بالخفة وعدم الاكتراث هو مجرد تمثيلية.

ولن تستطيع تحمل هذا.

ـ لكنك لم تأكلي شيئاً منذ ليلة أمس. ولسوف تمرضين، ما رأيك ببعض..؟

ـ قلت لك.. أنا لست جائعة.

أطلقت صيحة ذعر، خوفاً من أن يوقفها، ويجبرها على العودة. كادت تصل إلى الباب. لكن عينيها أعمتهما الدموع فلم تستطع أن ترى بوضوح، واصطدمت بشكل أخرق بخزانة الأدوات المطبخية التي وضعت على الجدار، وعضت شفتها بقوة لتمنع صيحة الألم التي كادت تفلت منها.

ـ فيليستي!

جاء اسمها بصوت ساخط وكأنه خرج من بين أسنانه: «اجلسي».

بعناد هزت رأسها رفضاً.

ـ قلت اجلسي!

ـ وأنا قلت إنني لا أريد أن آكل شيئاً.

ـ بحق الله يا امرأة.. هلاّ فعلتِ ما أقوله لك؟

كان يفقد سيطرته على أعصابه.

ـ لا.. لن أفعل!

أوه.. لِمَ لا ينفتح هذا الباب؟ ربما لأنها بالكاد تراه. وأدارت المقبض مرات ومرات دون جدوى.

ـ فيليستي..

جاء تحذيره منخفض الصوت وخطيراً، لكنها صممت على تجاهله.

ـ توقف عن إصدار الأوامر لي!

ـ وأنت توقفي عن الجدال معي في كل شيء.. أنت تجعلين الأمور أكثر صعوبة لنفسك فيليستي..

وأطبقت يدان قويتان على ذراعها، وأدارها لتواجهه.

ـ كوني متعقلة! فهذا لن يوصلك إلى شيء.

ـ أنا.. أنا لا أشعر بالتعقل.

ولذعرها، كان صوتها يرتجف: «أنا أشعر.. أشعر..».

وحين أصبحت لا تستطيع مواجهة الأمر، سمعت صدى صوت والدها في الجهة الأخرى من الهاتف حين تكلمت معه في وقت سابق: «لقد هرب ادوارد مع امرأة أخرى.. وترك رسالة تقول إنه يحبها، وإنه خطط للزواج من ماريا هذه، وإن زواجه منك ملغى. لكن الآن وقد دخل ريكاردو ڤاليرون إلى الصورة، لم يعد أي من هذا يهم. أليس كذلك حبيبتي؟ الآن وأنتما معاً، نحن جميعاً على ما يرام، بل نحن أكثر من على ما يرام».

فجأة، وبشكل صادم، لم يعد من الممكن العودة إلى الوراء. الدموع التي قاومت لتحبسها بقوة غلبتها، وانسكبت من عينيها لتهبط كالشلال على خديها.

ـ فيليستي؟ حبيبتي..؟

جاء اللطف المفاجيء في صوته، واستخدامه لكلمة «حبيبتي» المداعبة ليزيد الأمور سوءاً. ولم تستطع إخفاء مشاعرها أكثر من هذا، فدفنت رأسها بقميصه، وخدها على صدره الصلب، واستسلمت للدموع والتعاسة، وبكت.

ـ ما هذا..؟ فيليستي..؟

من أين أتى كل هذا؟ ما الذي أثار عاصفة البكاء هذه؟

ـ دموع؟ لماذا؟

لكنها لم تستطع سوى أن تهز رأسها وتبكي أكثر.

بلطف، عاد يلف ذراعيه حولها ويضمها إليه.. ما من جدوى لطرح أية أسئلة أخرى، على الأقل ليس قبل أن تمر العاصفة.

لكنه لم يكن يشعر بالراحة. كان ضميره متعباً يجعله يشعر بالغضب

للظروف التي قادت إلى هذا. غضب من ماريا ومن تصرفها الدرامي، ومطالبتها بالوعود. لكن أكثر من أي شيء آخر غضب من نفسه لأنه لم يقرأ الموقف بشكل صحيح.

لقد صدق ماريا حين أعلنت أن فيليستي لا تحب ادوارد ڤيتابيلز.. وادعت أخته غير الشقيقة أنه من المستحيل أن يكون هذا الزواج مبنياً على الحب، أو على أي مشاعر حقيقية، وصدقها.

الطريقة التي تصرفت بها فيليستي حتى الآن، أضافت وقوداً إلى نيران الاحتقار الذي أحس به نحو هذه المرأة. فهي لم تبدُ سوى فاسقة رخيصة، لم تتوقف لحظة لتفكر بڤيتابيلز.

لكن، لو كان الحال هكذا، فلماذا هذه النوبة المفاجئة من البكاء؟ هل هي صحوة ضمير متأخرة، أم بسبب الأخبار التي تلقتها لتوها؟ هل هي حقاً منزعجة بهذا القدر لفكرة أن ڤيتابيلز أصبح مع امرأة أخرى؟ لم يعجبه ما شعر به.. الإحساس غير المريح بالذنب ممتزج بشعور غريب من الغيرة والحسد لفكرة أن تكون هذه المرأة مهتمة فعلاً برجل آخر.

ببطء، وبالتدريج أصبحت شهقات بكاء فيليستي أقل عنفاً وأقل بؤساً، إلى أن توقفت أخيراً.. لتتركها تتنفس بخشونة، وتشرق من أنفها دونما أناقة. مد ريكو يده إلى علبة المناديل الورقية الموضوعة على خزانة المطبخ، وأخرج عدة مناديل ليمسح بها خديها المبللين بلطف كبير، لوى قلبها.

قال بصوت ناعم، وبلهجة مداعبة تقريباً: «والآن حبيبتي.. هل تستطيعين الكلام؟ هل أنت مستعدة لإخباري عن سبب كل هذا البكاء؟ يجب أن تشعري بالسعادة، وليس بالحزن. لقد قلت لك إنك تستطيعين الذهاب إلى بيتك..».

ـ لكن.. هذه كل المسألة!

جعل الجهد الذي بذلته لإخفاء ما تشعر به حقاً، صوتها مرتفعاً وحاداً أكثر مما كانت تنوي.

ـ ألا تريدين الذهاب إلى البيت؟

ـ بلى.. بلى.. أريد.. لكن..

وهزت رأسها يائسة: «لكن هذه ليست قصتي لأرويها لك».

ـ قصة من إذن؟

ضاقت عيناه بحدة، وعرفت أنه خمّن ما بها حتى قبل أن يتكلم.

ـ أزعجتك المخابرة الهاتفية. لذا فإن لهذا دخل بادوارد.

ولم تستطع اللقاء بعينيه، لأنها عرفت أن عينيها الرماديتين ستفضحان الكثير. لكنها عرفت أيضاً أنه سيصر على رد ما، وكل ما استطاعت فعله هو أن تهز رأسها، وتبقي نظرها مثبتاً على الأرض.

كان لهذا دخل بادوارد، ولم تجرؤ على إخبار ريكو عن الورطة المؤسفة التي أوقع جو هاملتون نفسه فيها، ولم تكن تدري إذا كان يعرف. ولا تعرف سوى أن ادوارد وعدها أن يُخفي الأمر عن الأرجنتيني، إذا فعلت ما يقوله لها.

إذا حافظ عريسها السابق على وعده، فلا تزال هناك فرصة كبلا يخسر والدها كل شيء. وهذا أمل صغير ستتمسك به، وعدم فعل هذا هو مخاطرة كبيرة. ومع صحة أمها الضعيفة، ستفعل أي شيء لتمنع انتشار الحقيقة.

همست بصوت تعيس: «أجل.. الأمر يتعلق بادوارد».

ولم تكن هذه الحقيقة بأكملها. لكن هذا كان جلّ ما هي مستعدة لأن تعترف به. كما أنّ هناك الكثير مما لا تستطيع إجبار نفسها على الاعتراف به، حتى لنفسها. فهي لا تفهم نصف ما يعتريها، فكيف تستطيع أن تشرح أي شيء لريكو؟

ـ أخبريني إذن.

وكان يتحرك وهو يتكلم، يقودها مجدداً نحو الطاولة، ليجلسها على الكرسي. نظر إلى القهوة التي أصبحت باردة مع تكشيرة اشمئزاز، وأفرغ الفنجان في المغسلة بسرعة. وشعر أنه بحالة أفضل عندما فعل شيئاً. على

الأقل، أبقى هذا يديه مشغولتين وألهى أفكاره.

تمنت فيليستي لو ينظر إليها. فقد كان من الصعب قول شيء للظهر المتصلب المستقيم. ولو استطاعت أن ترى وجهه..

لكن ريكو استدار، وأدركت غلطتها. فرؤية تعابير وجهه كانت أسوأ بكثير مما توقعت. فقد بدأ الاحتقار الذي كان ينسكب على بشرتها، يحرقها كثيراً وفي كل مكان..

ـ ماذا عن ادوارد؟

ـ كان.. كان يحتاج إلى زوجة.

واضطرت للمقاومة لإخراج الكلمات.

ـ جده.. اللورد هايسون، لم يكن موافقاً على طريقة عيشه، وهدد بأن يحرمه من الميراث. أراد رؤية ادوارد متزوجاً ومستقراً.. وإذا، إذا وجد عروساً مناسبة قبل نهاية السنة، فلن يستثنيه جده من وصيته. وسيحصل على المال، وعلى منزل هايسون وعلى اللقب. وادوارد أراد ذلك اللقب.

لكن ريكو لم يكن يستمع إليها، فقد بدا أن تفكيره يقلّب دور ادوارد في كل هذا. وكل ما استطاع التفكير فيه هو دور فيليستي في كل هذا، وكيف أنها مستعدة لبيع نفسها..

تجهّم وجهه ولم تعجبه طريقة تحول الأمر أبداً.

ـ وطلب.. طلب مني مساعدته.

ـ ولِمَ أنت؟

ـ لأنني كنت عروساً من النوع الذي يفكر فيه جده، العمر المناسب، والعائلة المناسبة..

والتوى فمها بمرارة: «النوع المناسب للإنجاب، كما أعتقد.. واللورد هايسون يكل تأكيد يريد وريثاً آخر لسلالة العائلة».

كانت هذه الحقيقة الكاملة.. فقد كان ادوارد فجاً في صراحته عن الامتيازات التي ستأتي بها إلى اتحادهما المقترح. فقد كانت كل شيء

سيوافق جده عليه . . فهي بعيدة جداً عن المرأة التي يهتم بها ادوارد حقاً . . تلك المتوحشة ، الغريبة ، المخزية قليلاً ، ماريا ليولين .

ـ وعلام ستحصلين من هذا؟

ابتلعت فيليستي بصعوبة ، لكنها وجدت حنجرتها لا تزال مخنوقة . وكانت تعلم أن هذا السؤال محتم ، وأنه يجب أن يُطرح . لكنها كانت لا تزال غير مستعدة للرد عليه ، وماذا يمكن أن تقول ليبدو مقنعاً ومناسباً؟

ما عدا الحقيقة .

ـ المال .

وأخرجت الكلمة بالقوة بصوت متكسر أجش ، كرهت سماعه . كانت الحقيقة ، لكنها جزء بسيط منها . والجزء الوحيد الذي يمكن أن تسمح لريكو بأن يعرفه . . أما ما تبقى فهو مثير جداً للاضطراب ، وخطير ، ويكشف الكثير ، ومجرد معرفتها بالمشاكل والنتائج ، يجعلها ترتجف رعباً في أعماقها .

ـ المال .

وجعل ريكو تكراره للكلمة يبدو وكأنه شتيمة عنيفة : «أفهم من هذا أنك بحاجة إلى الكثير من المال» .

ـ الآلاف .

راحت تتذكر وجه والدها المكفهر حين أخبرها ، والعذاب الذي بدا في صوته وهو يتوسل إليها ألاّ تقول شيئاً لأمها خوفاً من أن تسوء صحتها الضعيفة .

ـ وعرض عليك ادوارد أن يعطيك ما تحتاجين إليه؟

ـ أجل .

لم يسأل لما احتاجت المال ، كما لاحظت فيليستي . . بل وقف هناك ، ويداه القويتان مطويتان بشدة على صدره العريض ، وعيناه القاتمتان باردتان احتقاراً . . كالقاضي والحكم في دور واحد .

ـ مقابل الزواج منه؟

ـ أجل .

ـ وسيدفع كل ديونك؟

ـ أجل .

ـ إذن أنت لا تحبينه؟

كان يجد صعوبة في اقناع نفسه بالأمر ، وفي مرحلة ما هذا الصباح بدأ يشك في رواية ماريا . حتى أنه شك في التقارير التي تلقاها عن فيليستي ، وفي القصص عن لياليها الطويلة التي تقضيها في المربع الليلي .

تلك الدموع اللعينة التي ذرفتها ، أثرت به . . الدموع والجمال الناعم الضعيف دمّرا حكمه المتعقل .

لقد سمح لنفسه بغباء أن يترنح أمام الطريقة التي بدت فيها . ولأنه أسف فعلاً عليها ، زاد غضبه وخيبة أمله الآن فانقبضت يداه فوق حافة طاولة المطبخ التي استند إليها واشتدتا حتى ظهرت عقد أصابعه بيضاء ، وهو يقاوم ليشد لجام غضبه المتوحش .

وقال بصوت أجش بارد : «أنت لم تحبيه؟» .

أرضته نبرة صوته ، لا سيّما حين رفعت رأسها بحدة والعينان الرماديتان كالدخان تتسعان صدمة .

ـ لا . . لم أكن أحبه . . لقد كان زواجاً بالتوافق .

ـ ومناسباً جداً .

أزعجتها لهجته المزدرية ونظرة الاستهجان التي رمقها بها .

وردت عليه بحدة : «بالطبع أنت لا تفهم هذا!» .

جاء الرد سريعاً : «عليّ أن أعترف بأنني لا أفهم» .

وأخفى الصوت المتشدق إدانة باردة ، أصابت فيها وتراً حساساً ، وكأنها ضربة سوط .

ـ لا . . فأنت لا تعرف معنى الحاجة إلى المال ببأس حقيقي . . مبلغ لا يمكنك أن تملكه أو أن تدفعه . مال أكثر مما تأمل أن تكسبه في حياتك! وأعتقد أن هذا بالنسبة إليك مجرد مصروف جيب! مبلغ من المال تطرحه

جانباً دون أن تلاحظه.

ـ وهل تقترحين أن أدفع لك ديونك؟

ـ لا! أوه.. لا..! فهذا آخر شيء أريده.

ـ حقاً؟

ببطء استقام ريكو من حيث استند. فأجفلت قبلبستي في داخلها لفكرة القوة المكبوحة في جسمه، في كل عضلة ووتر، ورأت القسوة التي لا تلين لجسمه الضخم. إنه يجعلها تفكر بوحش لا رحمة فيه يدور بصمت خلال الليل، ينتظر اللحظة المناسبة ليثب على فريسته. عجزت عن البقاء جالسة أكثر، فدفعت نفسها لتقف على قدميها وهي ترفض الاتهام بغضب: «بالطبع لا! فهذا لم يخطر ببالي أبداً!».

ـ إذن، ربما كان عليه أن يخطر ببالك.

ـ ماذا؟

وهي مصعوقة، لم تستطع سوى التحديق إليه بعينين مصدومتين حذرتين. اتسع بؤبؤاها وبدت غير مركزة، هل قال فعلاً ما ظنت أنها سمعته؟ لكن حتى ولو قال هذا، فهناك سخرية سوداء في الموقف جعلتها تتكمش من الداخل.. لن يستطيع دفع ديونها.. أو ديون والدها.. لأنه الشخص الذي يدين له والدها بالمال، وهو يعرض عليها المال ليدفع لنفسه، دون أن يدرك هذا.

ـ ماذا.. ماذا قلت؟

التوى فم ريكو قليلاً في ابتسامة لا تحمل الدفء، بل ترسل إحساساً بشيء بارد ينزلق بطريقة شريرة بطيئة على طول ظهرها.

ـ بما أن مخططك للزواج من أرستقراطي ثري قد فشل، فربما تكون الخطوة المنطقية التالية بالنسبة لك، أن تجدي مرشحاً مناسباً آخر، شخصاً آخر يساعدك لتخرجي من مصاعبك المالية.

ـ وأنت تقدم نفسك لتكون المرشح المناسب؟ هل تفعل هذا حقاً؟

وانزلق السؤال دون حذر من بين شفتيها قبل أن تتاح لها فرصة

لتمنعه، وربما فهمته بشكل خاطئ. وربما يريد حقاً أن يساعدها.

وقفز قلبها قفزة أمل صغيرة.. هل من الممكن أن يكون ريكو قد اختبر بدوره شيئاً من الجاذبية التي أحست بها نحوه؟ وربما لو قالت له الحقيقة، يمكن أن يحلا شيئاً معاً.

ـ هل ستفعل من أجلي؟

ابتسم هذه المرة ابتسامة قاسية، شيطانية ومهلكة.

ـ لقاء ثمن.

ـ أوه!

طارت كل آمالها كالهواء المفرغ من بالون مثقوب، وقد دُمرت كاملة حتى قبل أن تتشكل.. وكل ما بقي لها هو إحساس رهيب بالخيبة والدمار أنهى الأمل المؤقت الذي اعتراها.

ـ أعتقد ليس علي أن أسأل ما هو الثمن؟

كان الرد موجوداً، في عمق عينيه، وقسوة نظرته. وقد طُبع في الرضى المبتهج الذي ظهر على وجهه، فكادت ترى الكلمات تحترق بأحرف من نار.

ثمن خلاصها كان هي، وللمدة التي يختارها.

ـ تريدني أن.. تريد شراء جسدي!

حتى أنه لم يدّعي الإنكار، ولو أنه لم يكترث بسخطها الغاضب.

قال بصراحة: «أريد أكثر من العناق الذي عرفناه هذا الصباح. وسأدفع أي ثمن لاكتشاف المزيد».

سيدفع أي ثمن.. إنه حقاً يعرف كيف يجرح. فقد طعنتها الكلمات في قلبها مباشرة وقطعت كيانها الضعيف.. كل ما يريده منها هو تنفيس جسدي خالي من العاطفة، ويعتقد أنه سيدفع الثمن.

بجهد كلفها أكثر مما جرؤت أن تعترف به، أجبرت نفسها على أن تشد عزيمتها، وتواجه التعبير المتحدي البارد بهدوء رغم أنها كادت تموت غيظاً.

ـ حسن جداً! يمكنك الاسترخاء سيد ڤاليرون. . والأهم من هذا يمكنك الاحتفاظ بمالك الثمين في أي مصرف سويسري خبأته فيه. . فلن ألمسه حتى ولو كنت يائسة.

ذكرها ريكو بقسوة: «لكنك يائسة».

ردت فيليستي عليه، وحنجرتها تتألم بكل ما تخفيه وتمنع خروجه: «لست يائسة إلى هذا الحد. ولن ألمس مالك ولو لأنقذ حياتي! لا أريد شيئاً منك. . لا شيء أبداً».

رد بنعومة مميتة: «أنت كاذبة. .».

ـ لا. . هذا غير صحيح!

لو ردّدت هذا مراراً وبصوت مرتفع فقد تقنعه حقاً. لكنها لن تقنع نفسها أبداً. لقد تقبّلت هذا الواقع، ومهما كان عدد المرات التي كرّرت فيها أنها لا تريده، فإن قلبها المسكين الغبي لن يتقبل هذه الحقيقة أبداً.

ـ أنا لا أريدك. . لا أريد مالك. . ولا أريد منك شيئاً!

ـ لكنك كنت مستعدة لأخذ ما سيقدمه ڤيتابيلز. ولم تفكري مرتين، بل انتزعت ما في يده دون تفكير. وأنا أستطيع أن أعطيك أكثر مما يستطيع أن يهبك يوماً.

إنه يصدق فعلاً أنها قادرة على فعل هذا، إنه يفكر حقاً أنها قادرة على استبدال رجل ثري بآخر دون أن يُتعبها. أحسّت فيليستي بالغثيان، واضطرت إلى أن تستند بيد ترتجف إلى أقرب كرسي كي تتمكن من الوقوف منتصبة.

ـ مالياً. . ربما! لكن هذا كل شيء!

أحست وكأنها تقاتل من أجل حياتها، وكأنها مدفوعة إلى زاوية خطيرة وظهرها ملتصق بالجدار.

ـ كان ادوارد مستعداً لأن يعطيني أكثر من هذا.

سأل ريكو بسخرية: «أوه. . بكل تأكيد! وبأي طريقة؟».

ـ لقد عرض علي الزواج! وهنا الفارق! لأنه لم يقترح أن أصبح. .

عشيقته. . لعبنه! بل عرض علي خاتماً واسمه. . وأفهم أن هذا لا يأتي مع الصفقة التي تقترحها؟

عرفت رده قبل أن يتكلم! فقد بدا في التغيير المفاجىء على وجهه، وفراغ عينيه، والتشدد القوي الذي ظهر على فمه لمجرد التفكير بالأمر.

تمتم بخشونة: «ما من مجال. . كرامتي لا تسمح. .».

ـ وأنا كذلك!

وبطريقة ما استطاعت رفع ذقنها بكبرياء. ونظرت إليه مباشرة، تتعمد إبعاد أفكارها كيلا يتمكن من أن يعرف كم تنزف حتى الموت في داخلها.

ـ كرامتي لا تسمح بأن أقبل صفقة من الدرجة الثانية، كالتي تقترحها. فالثمن الذي يرافقها باهظ جداً. . ولو عرضت عليّ كل المال الذي تملكه، إضافة إليك، فسيبقى أغلى بكثير! وأفضل العمل ليل نهار لأسدّد ديون. . ديوني شيئاً فشيئاً، ولو لزم هذا ما تبقى من حياتي!

لعل هذا ما سيحصل، واعترفت بهذا بكل بؤس. ستذهب إلى بيتها وتقول لوالدها إنها لم تتمكن من إنقاذه. عليها أن تكون موجودة من أجل أمها، حين تكتشف ما فعله زوجها، وليس لديها بديل. . فهذا أفضل من أن تصبح عبدة لهذا الرجل.

ـ ابتابيني. . لن أسألك مرة أخرى.

كان رد ريكو مقتضباً، متصلباً، وبارداً كالثلج.

وأجابت فيليستي بغضب: «لن أعطيك الفرصة، لأنني بعد اليوم، لو رأيتك يوماً، فستجري الأمور كما أريدها أنا».

وصاح قلبها الخائن صيحة عذاب واحتجاج للضرر الذي أوقعته كذبتها بها. لكنها أجبرت نفسها على أن تتجاهله، وتختبىء مرة أخرى خلف قناع السيطرة على النفس الذي استخدمته من قبل حتى بدأت تشعر أنها معتادة عليه.

ـ والآن. . إذا كنت لا تمانع. . سأقدّرك حقاً لو حافظت على وعدك، وتركتني أرحل.

وارتجف القناع لحظة، يهدّد بأن ينزلق حين تردد قليلاً. وبدا للحظة وكأنه على وشك التراجع عن وعده لها بأن يتركها ترحل.

وسألت مرتجفة: «هل أستطيع الذهاب؟».

ـ بالطبع.. سأحضر السيارة.. ويمكننا أن نغادر فوراً.

لو أرادت المزيد من الدلائل على ما عنته مشاعرها له، فقد برز الدليل واضحاً في السهولة التي قبل فيها قرارها، والسرعة التي كان مستعداً بها لأخذها إلى منزلها.

حتى أنه لم يشعر بأنها تستحق الجدال، وصرف النظر عن التفكير بها في لحظة.

أوصل الألم الذي تسببت به قسوته الحقيقة المروعة لفيليستي. فالأمور لن تكون سهلة عليها، ولن تتمكن من الخروج من حياة ريكو كما فعل معها.. بل تشك في قدرتها على نسيانه يوماً. ومع ذلك فالشك الذي شعرت به الآن حذرها بأنها لا تزال في بداية الطريق وأن الكثير من الألم ينتظرها.

* * *

٩ ـ القطة والعصفور

ـ إنها إلى اليمين.. هنا..

قاد ريكو السيارة إلى وسط الطريق، ثم انعطف حيث أشارت إليه فيليستي، بينما غاصت هي في مقعدها منتهدة بارتياح شديد، وأغمضت عينيها في أول لحظة استرخاء حقيقي عرفتها منذ حوالى الست والثلاثين ساعة.

إنهما هنا. لقد وصلا إلى الشارع حيث تسكن، وبعد دقيقتين، سيوقف ريكو السيارة أمام المنزل القديم الكبير الفيكتوري الطراز، الذي تملك فيه شقة صغيرة بغرفة نوم واحدة، وستتمكن من الخروج من السيارة، والسير بعيداً.

كانت مصممة على أن تفعل هذا دون نظرة إلى الخلف، مهما كلفها الأمر. ولن تعطيه أدنى فكرة عن الطريقة التي جرحها فيها، ولا عن البؤس الذي يتآكلها من الداخل. ستقول وداعاً، وستبقي لهجتها عادية قدر الإمكان، وربما ستتمكن من أن تلوح بيدها بخفة، ثم تسير بثبات إلى المنزل وتغلق الباب وراءها.

وماذا سيحدث بعد ذلك؟.. تجهل تماماً ما ستكون ردة فعلها ما إن يصبح دفاع الباب الخشبي الصلب في مكانه. ولا تريد حتى التفكير بهذا الآن، لأنه سيضعفها كثيراً. وسيأتي هذا الوقت بسرعة تكفي، ثم..

ـ ما الذي..؟

فتحت عينيها بصدمة على صوت ريكو الأجش، وصرير المكابح وهو

www.liilas.com/vb3

يتوقف بشكل طارئ فحدّقت به بحيرة: «ما الأمر؟ ما الخطأ؟ هل هناك..».

ماتت الكلمات على لسانها عندما أخرج ريكو رأسه من النافذة الأمامية لينظر إلى جمع كبير.. احتشد هناك نحو خمس وعشرين رجلاً وامرأة، الكل يقف ويتحدث بشكل منقطع، مما جعلها تعبس في حيرة.

ـ من.. ماذا يفعلون؟

لكن، حتى وهي تتكلم، توضحت الأمور أكثر، وحلّ الإدراك كضربة على الرأس.

فالجمع لم يكن مجتمعاً هناك للقاء عادي.. فهم هناك لغرض ما.. وهذا الغرض كان واضحاً من آلات التصوير والميكروفونات التي يحملونها، والسيارات والشاحنات المغلقة التي تحمل شعارات محطات تلفزيون. لم يكونوا مجتمعين حول أي منزل في الشارع سوى واحد بشكل خاص.. وذلك حيث تسكن.

وشهقت: «إنهم صحافيون! لا بد أن شيئاً حدث!».

رد ريكو بتركيز ساخر: «أنت التي حدثت.. أنت وزفاف السنة.. الزفاف الذي لم يحدث أبداً».

وضرب قبضته بقوة على المقود بإشارة غضب وإحباط.

ـ كان عليّ أن أتوقع هذا. كان عليّ أن أعرف!

بدأت فيليستي تقول: «لا، لا يمكن لهذا..».

لكنها لم تستطع إكمال الجملة، لأنها وهي تتكلم حدث تغيير في الجمع خارج منزلها.

فقد رفع أحدهم نظره. وتحول اهتمامهم إلى السيارة التي وقفت وسط الطريق جامدة لا تتقدم ولا تتوقف جانباً.

قال ريكو بحدة: «لقد شاهدونا».

جعلتها حدّة صوته تتوتر بشدة، وتلوّث أعصابها وهي تجلس مستقيمة في مقعدها.

ـ إنهم قادمون.

وكانت مجموعة الناس تتحرك فعلاً، كلهم يتجهون نحوهما. وعبر النافذة المفتوحة، سمعت فيليستي طنين الحديث، مما جعل بشرتها تنكمش باضطراب.

ـ يجب أن تتخذي قراراً، هل نبقى أم نذهب؟

ـ نذهب إلى أين؟ ليس هناك مكان آخر نذهب إليه.

طلبت من ريكو أن يأتي بها إلى هنا، إلى شقتها، لأنها لم تفكر بأي مكان آخر. فلو ذهبت إلى منزل أبويها، فستضطر إلى مواجهة قلقهما وأسئلتهما، ومخاوف والدها حول مستقبله ولم تكن مستعدة لكل هذا.. فهي بحاجة إلى قليل من الوقت لوحدها. وقت لتلتقط أنفاسها وتستجمع أفكارها قبل مواجهة أي كان مرة أخرى.

ـ هذا خيارك، لكن إذا لم تتخذي القرار بسرعة، فلن نتمكن من الخروج من هنا.

ـ لكنني لا أريد الذهاب إلى أي مكان.. أريد الذهاب إلى بيتي!

ـ حسن جداً.. هذا هو قرارك. لكن لا تتوقعي أن يكون هذا أمراً لطيفاً.

ووجه السيارة إلى حافة الطريق حيث تجمع الصحافيّون، وتجمهروا حول المركبة، يصوبون آلات التصوير والميكروفونات.. وأجفلت فيليستي إلى الوراء في مقعدها، تصيح مصدومة مع وميض عدد من الأضواء، في وجهها لتعميها مؤقتاً.

ـ ما هذا؟ ماذا يجري؟

ووضعت يدها على الباب وهي تتكلم، لكن قبل أن تستطيع فتحه، أمسك ريكو ذراعها، ليرجعها إلى الوراء.. وقال بحدة: «كلمة نصيحة.. لا تقولي كلمة ولا حتى «لا تعليق». ابقي فمك مقفلاً فقط، ورأسك إلى الأسفل وسيري عبرهم مباشرة.. سيكون الأمر أسهل عليك هكذا.

ـ أسهل؟ لكنك فهمت خطأً . . لا يمكن أن يكونوا هنا لرؤيتي! أعني لماذا؟ ماذا . . ؟

لكن الأصوات في الخارج بدأت تصل إليها مرتفعة، حازمة، ومصممة. وراح كل شخص بمفرده ينادي باسمها.

ـ فيليستي . .

ـ آنسة هاملتون . .

ـ لحظة واحدة من وقتك فيليستي . .

ـ مجرد سؤالين . .

وأطبق الذعر على حلقها، وأخذ قلبها يخفق بخوف، واستدارت إلى ريكو بعينين واسعتين مصدومتين: «لا أستطيع! لا أستطيع الخروج إليهم».

قال بثبات: «يجب أن تخرجي. لقد تأخر الوقت للعودة الآن. وإذا كنت تريدين الوصول إلى شقتك، فستضطرين إلى المرور عبرهم . . إما هذا أو الابتعاد من هنا بسرعة».

إذا أرادت الوصول إلى شقتها! بالنسبة لفيليستي، بدا التفكير بشقتها الصغيرة كالتفكير بالجنّة. ملاذ آمن من العاصفة التي تفجرت فجأة من حولها . . وهي لا تريد أبداً أن تكون إلاّ في شقتها طيلة عمرها.

ـ لا تقلقي . .

مرة أخرى بدا أن ريكو قرأ أفكارها: «سأكون خلفك تماماً، وسأبقى معك في كل خطوة».

لم يكن هذا الاقتراح ما خططت له. ففكرة مجيء ريكو معها، ودخوله إلى شقتها، إلى بيتها، نفضت عن فيليستي ما تبقى من رباطة جأشها. إنها فكرة مثيرة للاضطراب، غير مريحة، ولا مرغوبة. . لكن وفي الوقت ذاته مريحة جداً بحيث أنها عرفت أنها لا تستطيع رفضها.

وأخذت نفساً عميقاً مهدئاً، ورفعت كتفيها، وابتلعت بقوة.

وتمتمت: «دعنا ننتهي من هذا . . ».

ودفعت الباب تفتحه.

كان الأمر شبيهاً بالخروج إلى قلب العاصفة. كان الضجيج ووميض آلات التصوير على الرصيف يحيطان بها وكانت تسمع اسمها يتردد باستمرار: فيليستي . . فيليستي . . ممتزجاً بصيحات متواصلة: «سؤال واحد فقط . . . ».

ودفعت، وتضايقت، وصدمت ودست الميكروفونات في وجهها حتى اضطرت إلى إرجاع رأسها إلى الوراء خوفاً من أن تصطدم بفمها.

ـ لِمَ فعلت هذا فيليستي؟ هل كان لك رأي آخر؟ هل كان ذلك توتر يوم الزفاف؟

ـ هل أحببته حقاً؟ أم أنك فقط . . . ؟

ـ متى التقيت ريكاردو ڤاليرون؟ وأين . . . ؟

لن تستطيع هذا! جمّد الذعر قدميها في الأرض وأعمى عينيها، بحيث أنها لم تعد قادرة على الحركة، أو رؤية طريقها. لم تعد تعرف أي اتجاه يقودها إلى شقتها، ولن تستطيع الوصول حتى ولو حاولت. . أحست بأنها تغرق في بحر من الأجسام والأسئلة، وتهبط إلى الأسفل بكل تأكيد وللمرة الثالثة.

ـ ريكو؟

كان عويل ذعر مرتفعاً ومشدوداً، لكنه ضاع في الضجيج الذي حولها، في موجات الأصوات التي تدور حول رأسها.

لكن، وهي على وشك فقدان السيطرة على أعصابها، وقف ريكو فجأة إلى جانبها، طويل قوي، صلب يعتمد عليه . . مصدر دعم وهدوء في عالم جُن جنونه.

والتفت ذراعه حول كتفيها، ثقيلة ودافئة، تشدها إليه أكثر حتى أن خدها أصبح على صدره، ووجهها محمي من آلات التصوير والميكروفونات بأصابع يد قوية كالدرع. وغريزياً، التفت يداها حول خصره، تتمسك بسترته لتدعمها.

قال بهدوء في أذنها: «سيري فقط..».

وداعبها دفء أنفاسه على بشرتها: «ضعي قدماً أمام الأخرى، ولا تتوقفي.. وسأتأكد من أنك تسلكين الطريق الصحيح».

أطاعته فحسب. كانت عاجزة عن التفكير، وتركت نفسها نصف سائرة ونصف محمولة فوق الرصيف، وببطء، وتدريجياً، عبر الجمع.

واستدارت الكاميرات نحوه، ووجهت الأسئلة له: «أين التقيتما ريكاردو؟».

ـ هل هذا حب حقيقي أم صفقة استيلاء أخرى؟

ـ متى نتوقع سماع إعلان موعد الزفاف؟

لكن أملهم خاب، فريكو لم ينطق بكلمة ولم يظهر أية ردّة فعل بل استمر في السير بثبات وسهولة، يشق طريقه عبر المجتمعين، ويتجه مباشرة إلى منزل فيليستي.

كان هناك لحظة تردد غير مريح حين استدار نحو فيليستي وهما في أعلى سلم المبنى نحو فيليستي.

ـ المفتاح؟

إحساس يائس طغى على فيليستي، وهدد أن يسحب ساقيها من تحتها. المفاتيح مع أمها، في حقيبة اليد التي كان من المتوقع أن تأخذها بعد مراسم الزواج، حين ستخلع ثوب العرس وترتدي بذلة السفر.

بدأت تقول: «أنا لا..».

لكن ريكو تصرف.

فقد لاحظ ما فاتها ملاحظته. ورأى الطريقة التي كان الباب فيها غير مقفل تماماً، بل أن مستأجراً آخر، وهو في طريقه إلى الخارج، تركه مفتوحاً، فدفعه ليفتحه بقدم واحدة، وأدخلها معه.. ثم استدار وهما يدخلان ليصفق الباب خلفه، مباشرة في وجوه الصحافيين اللذين يلاحقونهما.

وتمتم: «هذا سيوقفهم لفترة. على الأقل، بما يكفي لتأخذي نفساً.

والآن.. أية شقة؟».

ـ في الطابق الأعلى.. أول باب إلى اليمين.

أخذت نفساً عميقاً متهدجاً وهي تشعر بغياب شيء من التوتر عندما أدركت أنها آمنة.

وأضافت بينما قدم لها ريكو ذراعه مرة أخرى: «أستطيع تدبير أموري وحدي».

المساعدة التي كانت سعيدة جداً لتلقيها في الخارج أصبحت مختلفة جداً داخل المنزل، خلف الأبواب الموصدة. فما بدا واقياً وداعماً، أصبح الآن حميماً وشخصياً.. وأقسى بكثير من أن تتقبله لا سيما وأنه أشعل مشاعر مختلفة تماماً في داخلها، مما جعل ضربات قلبها تزداد بشكل خطير، وترسلها مسرعة تصعد السلم وبشرتها تقشعر بشكل منذر.

كان ريكو لا يزال هناك، خلفها مباشرة. مبقياً على مسافة بينهما، لكنه كان يوضح في الوقت ذاته أنها إذا احتاجت إليه فهو هناك، مستعد للمساعدة.. وبدا أنه شعر بالتغيير، لأنه لم يعد يلمسها، بل تراجع، وتوقف بحذر على بعد خطوات منها، وجسمه الطويل متصلب ومشدود.

ـ على الأقل، أحمل مفتاحاً لهذا الباب..

حاولت أن تضحك، لكنها أحست بالضحك يتلاشى وهو يراقبها تخرج مفتاحها من مكانه فوق الباب. وكشفت تقطيبته بوضوح، عدم موافقته على استهتارها، وكان تعليقه الجاف: «هذا ليس تصرفاً متعقلاً».

أصابت لهجته وتراً حساساً عند فيليستي.

وردت عليه: «أنا لا أهتم لرأيك! كل من يسكن هذا المنزل صديق.. وأنا أثق بهم.. أضف إلى هذا، فلا يوجد شيء يمكن لأحد سرقته هنا».

قاومت لتبدو مسترخية، لكنها وجدت نفسها تفشل ببؤس حين ارتجفت يدها التي تحمل بها المفتاح جرّاء المحنة التي مرت بها في الخارج، حتى استحال عليها أن تدفع المفتاح في القفل. كان ريكو يتشوق للتقدم وأخذ المفتاح منها كي يقوم بالعمل عنها. لكنها منعته بنظرة،

ونجحت في المحاولة الثانية، وفتحت الباب بحركة مجنونة قليلاً.

وأعلنت: «أترى!».

وأشارت إلى غرفة الجلوس الصغيرة المدهونة بالأخضر والعاجي بتلويحة من يدها: «بالكاد تكون «هايسون هاوس». أليس كذلك؟».

لا.. لقد كانت هذه غلطة.. وغلطة سيئة. لقد ذكرت ريكو بالسبب الذي قالت إنها ستتزوج ادوارد من أجله، وأعادت العبوس إلى وجهه، والتباعد إلى عينيه.

وأضافت، بدفاع مستعجل: «لكنني أحبها.. قد تكون صغيرة، لكنها بيتي. أدخل بسرعة قبل أن تجد مجموعة الذئاب المعولة في الخارج طريقها إلى هنا».

قال ريكو: «أعتقد أننا آمنان بما يكفي لفترة ما، فمن غير المحتمل أن يلحقوا بنا إلى هنا. لكنك ستواجهين المشكلة نفسها حين ستضطرين للخروج مرة أخرى».

ارتجفت فيليستي للفكرة: «الكنهم بالتأكيد سيستسلمون قبل هذا؟ سينعبون من الانتظار..».

وتركت الجملة تنتهي بينما سار ريكو إلى النافذة يرفع الستارة بيد برونزية وينظر إلى الخارج.

وسأل بسخرية: «وهل يبدو هذا الجمع على استعداد للاستسلام؟ يبدو وكأنهم يخططون للبقاء ليلاً».

تقدمت فيليستي إلى جانبه، ونظرت إلى الخارج. عصر الخوف معدتها وهي ترى الصحافيين مجتمعين في عصبة ككلاب الصيد أمام عتبة الباب وحولها. لا بدّ أنها قامت بحركة صغيرة لفتت عين أحدهم لأن الرؤوس كلها ارتفعت واستدارت نحوها. واتجهت آلات التصوير في اتجاهها، وتفجرت الأضواء، لترسلها منزعجة إلى وسط الغرفة، وقد اختفت رباطة جأشها التي اكتسبتها في ثانية واحدة.

وصاحت: «لِمَ يلاحقونني هكذا؟ ماذا يعتقدون أنني فعلت؟».

رد ريكو: «لقد أعطيتهم قصة.. وبالنسبة لهم، إنهم يؤدون عملهم».

وهو يتكلم، أخرج شيئاً من جيب سترته، ورماه لها، فالتقطته بشكل أخرق. كانت قصاصة مطوية من إحدى الصحف المشهورة.

بيدين مرتجفتين فتحت القصاصة، وملستها. وأفلتت منها صيحة عدم تصديق مصدومة وهي ترى العنوان: «سكرتيرة تترك وريث «الايرل» على المذبح». لقد قامت فيليستي بعمل غير شريف وهربت مع مليونير أرجنتيني...».

ـ من أين حصلت على هذه؟

ـ كانت معروضة للبيع في كل محطات الخدمة على الطريق العام التي مررنا بها، واشتريت نسخة ساعة وقفنا لشرب القهوة.

كانت مصممة جداً على العودة إلى البيت في أسرع وقت ممكن، فلم تسمح لنفسها بقضاء وقت طويل في ابتلاع القهوة، وتذكرت فيليستي هذا. حتى أنها لم تُلقِ ولو نظرة عابرة إلى الصحف.

ـ لكنني لم أهرب معك! إنهم..

خانتها الكلمات وهي تنظر إلى الورقة مرة أخرى.

تحت العنوان الرئيسي، كان هناك صورة لادوارد الأنيق بثياب العرس، يبدو حزيناً وتعيساً وقد كتب تحت الصورة «الذئب المحطم».

ـ لا..!

ضعفت ساقاها تحتها، فغاصت في أقرب مقعد، وهي لا تزال تقاوم لتستوعب ما يجري.

ـ هذا لا يمكن.. ادوارد لن يقول شيئاً كهذا.

لكن وهي تتابع القراءة اكتشفت أن ادوارد قال هذا فعلاً، فقد صوّرت في تقرير آخر يحمل عنوان «زفاف السنة الذي لم يتم»، على أنها محطمة قلوب قاسية، عابثة رخيصة علقت رجلاً، ووعدته بالزواج، لتتخلى عنه من أجل رجل ثري آخر.

- ليس هذا ما حدث! لا يمكنهم طبع هذا!

- لقد طبعوه وانتهى الأمر.

- لكنه غير صحيح! ولا كلمة واحدة منه صحيحة.

- لا؟ صححي لي إذا كنت مخطئاً. . أظنك قلت لي إنك ستتزوجين من ادوارد لأجل ماله. . على الأقل من أجل المال الذي وعدك به لسداد ديونك.

وجنّت لسماع كلامه، مما أضاف الوقود إلى نيران مشاعرها المحترقة.

وصاحت ساخطة: «هذه غلطتك».

كوّرت القصاصة ورمتها في وجهه.

- أنت بدأت هذا! لولاك ولولا خطة الاختطاف المجنونة، لكنت وادوارد الآن متزوجين، ولما اضطررت إلى تحمّل كل هذا، وإلى رؤية اسمي يتمرغ في الوحل.

- أيهمك هذا. . أكثر من عدم حصولك على زوج ثري يسدّد لك ديونك؟

- بالطبع يهم! ما سيكون شعور والديّ برأيك وهما يريان اسمي مطبوعاً في كل الصحف هكذا؟

ما عدا، طبعاً، أن والدها يصدق أن علاقتها مع ريكو أمر حقيقي.

وتأوهت فيليستي، ودفنت رأسها بين يديها في دلالة يأس.

- لِمَ يحدث هذا لي؟ كل ما أريده هو استعادة حياتي.

- أشك في أن تتحقق هذه الأمنية قبل فترة.

عاد ريكو إلى النافذة، يقف بعيداً عن الزجاج كي يراقب دون أن يراه أحد.

- يبدو أن خبر وجودك قد انتشر. . فهناك تعزيزات تصل كل دقيقة.

شحب وجه فيليستي للفكرة: «لا أستطيع مواجهتهم. . لا أستطيع ريكو. . ماذا سأفعل؟».

لن يكون إنساناً إذا لم يؤثر توسلها فيه. حين تنظر إليه هكذا، وعيناها الرماديتان سوداوان لشدة الكرب، أمام شحوب خديها، تطعن قلبه حربة، ويرغب في نسيان كل ما عرفه عنها وخاصة خيبة الأمل التي واجهها حين عرف السبب الحقيقي وراء زواجها المدبر من ادوارد فيتابيلز.

حين خرجا من منزله في وقت سابق بعد ظهر ذلك اليوم، أراد أن يجيء بها إلى هنا، أن يوصلها إلى بيتها. . ثم يتركها. ولم يكن يريد أي شيء منها. أراد الخروج من هذا الموقف بسرعة. . فقد أدرك تماماً المشاعر الجسدية التي يحملها لهذه المرأة التي شتّت أفكاره، ودمرت تفكيره، ودفعته إلى ارتكاب عمل أحمق خطير.

آجلاً أم عاجلاً، ستنطفئ نيران الرغبة وكل ما سيبقى هو الألم البارد. لقد مر بهذا من قبل، وما من شك أنه سيمر به مرة أخرى. . لكن حين يحصل هذا، فسيحرص على أن يكون مع امرأة مختلفة تماماً عن هذه المرتزقة الباردة الدم التي تبحث في الرجال عن مصلحتها.

مع هذا، أدرك تماماً أن أفكاره هذه لا تقنعه.

وتمكن من القول متجهماً، دون أن يلتقي بعينيها: «يمكنك الانتظار، سوف يتعبون في النهاية».

- لكن متى هي النهاية؟ يوم؟ أسبوع؟

ونظرت نحو النافذة.

بدت كطفلة صغيرة مكدرة في المقعد المتسع الأخضر، وساقاها تحتها، والقميص الواسع وبنطلون الجينز يغمران جسمها النحيل. . لكنه علق بهذا المظهر من قبل وندم على ذلك. . لم يكن مظهر الضعف، وعدم القدرة على الدفاع، سوى واجهة، قناع تختبيء خلفه وتخبيء طبيعتها الحقيقية المستغلة. وهو لن يستسلم لسحرها مرّة أخرى.

أمل أن يُقنع نفسه كيلا يتذكّر إحساسه عندما ضمّها، ولمسة يدها الناعمة. مجرد التفكير بذلك، جعل قلبه يخفق بسرعة وجفّ فمه في حرارة ذكرياته.

- إذا كنت محظوظة، فسينسى الناس هذا بسرعة.

كانت المقاومة التي مارسها لجعل صوته هادئاً غير مكترث أصعب مما توقع. وأخذ يراقبها تجفل بحدة وهي تسمع: «لحظة تصلهم قصة جديدة، سيتخلون عنك وينتقلون إلى قصة أكثر تشويقاً».

أدركت فيليستي ببؤس أنه سيتركها.. سوف يتخلى عنها ويبتعد دون أن يلقي نظرة إلى الخلف.. منذ أقل من ست وثلاثين ساعة، كان هذا ما تريده بالضبط، ولقد صلّت ليخرج من حياتها، ويتركها وشأنها.

أما الآن.. فهذه الصورة تمزق قلبها، وتتركه ينزف.

تمكنت من أن تقول بصوت أجش من الألم: «أوه.. رائع! عظيم! وماذا أفعل في هذه الأثناء؟ هل أبقى محجوزة هنا أم أرمي نفسي للذئاب إذا حاولت الخروج.. ريكو!».

وصمتت تصيح باسمه بخوف بعد أن أخذ أحدهم يضرب الباب الأمامي بقبضة ثقيلة، وأخذ الصوت يتردد عالياً في الردهة وعلى السلم.

لم يستطع إيقاف نفسه.

فتلك الصيحة استدعت أحاسيسه كافة، وناشدت إحساسه الداخلي. ناشدت غريزة الرجل البدائية التي تدفعه لأن يحمي ويدافع عن أنثاه حين يهددها الخطر.

ودون أن يفكّر، تحرك إلى جانبها، وركع قرب المقعد ليحملها بين ذراعيه ويشدها بقوة. أحست أنها رقيقة جداً في قبضته، وأن عظامها هشة جداً ولا تتحمّل قوة قبضته.

تأوهت فيليستي: «أوه.. لِمَ لا يذهبون من هنا؟ ولِمَ لا يتركوني وشأني؟».

أنقذ مرة، وهو صبي صغير، عصفوراً مرعوباً من بين فكي قطة مصطادة وحمله بحذر إلى الأمان. ارتجف العصفور بين يديه كما ترتجف فيليستي الآن وتساءل كيف يستطيع مخلوق ضعيف أن يتدبر أمره في وجه وحشية العالم.. والقوى التي ترميه بها الطبيعة.

قالت له أمه إنه لن يعيش، وإنه من الأفضل تركه للقطة. وستكون نهايته على الأقل سريعة بشكل رحيم. لكنه لم يستسلم، فقد أثار المخلوق الصغير فيه كل غريزة حماية يمتلكها واعتنى به بإخلاص. وأبقاه في علبة في غرفته، يطعمه الحبوب وبقايا الطعام، إلى أن استعاد أخيراً قوته، ولم ينس أبداً لحظة أطلقه حراً، ولا الطريقة التي ارتفع فيها قلبه مع ارتفاع العصفور وفرده لجناحيه والطيران بعيداً.

يجتاحه الإحساس ذاته الآن. وأدرك أن الطريقة الحكيمة الوحيدة، والقرار المتعقل الوحيد هو أن يبتعد. وأن يقول لنفسه إن فيليستي قامت باختيارها، وخلقت مشكلتها، وكل ما عليه فعله هو أن يتركها وشأنها.. يجب أن يسير عبر ذلك الباب ويغلقه بحزم خلفه، ولا يراها مرة أخرى. لكن ضميره لم يطاوعه لفعل هذا.

لا.. والحقيقة أنه لا يريد أن يفعل هذا.

واجه الحقائق أيها الأحمق! ووبخ نفسه. لقد غرزت مخالبها فيك وأنت لا تريدها أن تتركك.

حين طرق الباب مجدداً، ارتجفت فيليستي، وأخذت يده تطوي أصابعها حولها لتستمد منها القوة. أيقن أنه ضاع.. وفتح فمه قبل أن يكون لديه وقت للتفكير.

وسمع نفسه يقول: «هناك شيء آخر تستطيعين فعله.. يمكنك المجيء معي. على أي حال هذا ما يتوقعه الجميع منك. تعالي إلى الأرجنتين إلى أن يموت كل هذا الضجيج».

* * *

١٠ - جرح من الماضي

ماذا أفعل هنا؟

سؤال طرحته فيليستي على نفسها مرات عديدة، منذ أن حطت طائرة ريكو الخاصة النفاثة في المطار الدولي في «ايزيزا» خارج «بوينس آيرس». ومن هناك انتقلا إلى طوافة كبيرة للطيران إلى الداخل إلى «الاستانسيا» الضخمة الواقعة في سهول خضراء نضرة من أراضي «الپامپاس» موطن عائلة ڤاليرون منذ أكثر من قرن.

حتى ذلك الوقت، بدأت تتساءل عما تفعله، وحين ألقت أول نظرة على بيت المزرعة في «لا إستريلا» دار السؤال مرات ومرات في رأسها كلازمة أغنية متكررة.

لِمَ أنا هنا؟ ما الذي دهاني بحق السماء لأقبل دعوة ريكو؟

لأنها لم تكن تنوي قول نعم. في الواقع، وفيما ريكو ينهي حديثه قررت أن تجيب بلا. فتحت فمها لتقول الكلمة، لكن صوتاً مرتفعاً آخر تصاعد من الباب، وقطع حبل أفكارها وجمد الكلمات على شفتيها.

لن يذهب الصحافيون قبل أن يحصلوا على قصتهم، هذا ما قاله ريكو، وهو يقرأ أفكارها بدقة.

- إذا بقيت هنا سيحولون حياتك إلى جحيم، وسيطاردونك ليل نهار.. ومن الأفضل أن تريحي نفسك وتغادري البلاد لفترة.

اريحي نفسك... التفكير السليم يشير إلى أنه يجب ألا تفكر بالمسألة. لكن، ويا للصدمة، قامت فيليستي بأكثر من هذا. فقد اعتبرت

فكرة الذهاب مع ريكو الطريقة المثلى لقضاء وقت أطول.. برفقته.

لم يمضِ أكثر من أربع وعشرين ساعة على وقوع نظرها على ريكو حتى انقلبت كراهيتها وخوفها منه، إلى مشاعر حارة، لم تعرفها من قبل. ومنذ وقت قصير فقط حلمت بالخلاص منه، بالتحرر من وجوده الخطير المدمر في حياتها. أرادت أن تعود إلى طبيعتها، ولم ترغب إلا برؤيته يبتعد عنها، ويتركها قطعاً محطمة.

لكن فكرة العيش دون ريكو بدت الآن وجوداً فارغاً ومملاً.. لن تستطيع تحمل الوداع. تعرف أنها ستقدم على أي شيء.. أي شيء على الإطلاق.. قد يمكنها من البقاء معه ولو لفترة قصيرة بعد.

هذا جنون.. جنون مطبق.. غير منطقي ومتهور. لكن لا دخل للتفكير المنطقي بهذا. إنها تصغي إلى غرائزها البدائية، وتتبع حوافزها. لم تستطع السيطرة على نفسها لتقول نعم.. بل هزت رأسها بعد أن فقدت القدرة على الكلام أمام صدمة ما توافق عليه.

لكن هذا لا يعني أنها لم تفكر ثانية. فقد راودتها أسوأ لحظة شك حين بدأت الطوافة بالدوران استعداداً للهبوط.

لامس ريكو ذراعها لبلفت انتباهها ويشير من النافذة.

- لو نظرت إلى الخارج الآن، فستلقين أول نظرة على «الاستانسيا» هناك.. أترين.. هذه «لا إستريلا».

- تلك!

علقت أنفاس فيليستي في حنجرتها، وحدقت بذهول مصدوم إلى المنزل المنخفض، المبني وسط مروج خضراء غضة. كان المنزل مبنياً في مربع، جدرانه مطلية بالأبيض، وسطحه من الآجر الأحمر، نوافذه على الطراز الاسباني القديم تطلّ على شرفات واسعة. وفي إحدى الجوانب بركة سباحة ضخمة مياهها صافية وبلاطها أزرق، وحديقة غنّاء مزروعة بالموز والزهور الاستوائية وبأشجار جميلة.

- لكنها رائعة! جميلة جداً!

ومخيفة جداً أيضاً. كانت تعرف أن ريكو ثري. وكان من المستحيل ألا ترى كيف سهل ماله طريقهما في كل مرحلة من الرحلة، بدءاً من ليموزين يقودها سائق أقلتهما من شقتها إلى المطار.. وسائق آخر سُرّ بتولي أمر سيارة ريكو. ثم، هناك السرعة التي انتقلا فيها إلى الطائرة النفاثة، وأساليب الراحة في الطائرة الضخمة.. لكن، ما من شيء أوضح لها الموقف مثل هذا المنزل الضخم الملوكي الذي يقف في أبهة معزولة في سهل ضخم متسع.

سألت بذهول، غير قادرة على إبعاد عينيها عن المنظر الصادم: «هل لديك جيران؟».

ـ يبعدون أميالاً.. ولهذا نستخدم الهليكوبتر كثيراً.

بدا ريكو مسترخياً تماماً، غير مكترث أبداً. لكنه بالطبع، ولد وتربى هنا. فهذا هو موطنه، ولم يكن يأبه إلى أن «لا استريلا» معزولة.. أما هي فأدركت أنها ستكون لوحدها تماماً طيلة الأيام القادمة.. مع ريكو.

لم يخفّف مرور الوقت من ذلك الإحساس.. حتى اكتشافها، وعلى عكس ما توقعت، أن ريكو رتب لها غرفة منفصلة لم يخفف من توترها الذي ضغط على أعصابها وشدها كوتر الكمان.

صاحت وقد اتسعت عيناها دهشة وذهولاً، وهي تستوعب ما ترى: جناح مكتمل بغرفة نوم وحمام وغرفة جلوس حيث الأبواب الزجاجية تنفتح على فناء مركزي مبلط: «هذه لي؟ لكنني ظننت..».

ـ ظننت أنني قد أتوقع ثمناً ما لضيافتي؟

برزت حدة في صوته كشفت أن تعليقها وخز جزءاً من كرامته كرجل، وأغضبه في العمق.

ـ امنحيني القليل من الثقة يا عزيزتي. حين عرضت عليك مكاناً تختبئين فيه من ضجة إلغاء زفافك، لم يكن لدي أي دافع خفي في تفكيري.

تمتمت: «أنا.. آسفة».

لكن ريكو تجاهلها، وأزاح تدخلها المتسرع جانباً، بتلويحة متعجرفة من يده.

ـ كنت بحاجة إلى ملاذ آمن في مكان ما لتتخلصي من العاصفة وهذا ما كنت قادراً على توفيره. أحسست أنني مدين لك بعد الدور الذي لعبته في تدمير خططك المستقبلية.

كانت هذه مقولة ذات حدين. ولم تكن فيليستي بحاجة إلى من يذكرها بأن ريكو صدق بأن خططها المستقبلية تشمل الزواج من ادوارد لمجرد أن تضع يدها على مال الرجل. وفي نظره، لم تكن أكثر من باحثة عن الذهب، رخيصة.. امرأة يصدق أنها مستعدة لبيع نفسها لمن يعرض أعلى الأسعار.

ـ شكراً لك.

فضحت نبرة صوتها مشاعرها الملتبسة، وهو أمر لم يغب عن ملاحظة ريكو، كما رأت من شرارة التحدي التي برزت في العينين الآبنوسيتين. مما جعلها تشك في أنه لم ينته منها بعد.

وكانت محقة.

ـ هذا لا يعني أنني قد أعترض لو قررت أنك مستعدة لمنحي ما أريده.

ازداد لمعان عينيه مع كل كلمة قالها، وأكمل متشدقاً: «لكن يجب أن يكون هذا خيارك، أن يأتي بإرادتك».

وهذا ما يضمن أن يبقى فمها مقفلاً. هل يصدق فعلاً أنها ستتمكن من المجيء إليه، وفي وضح النهار لتقول وبدم بارد إنها تريده؟ انكمشت أعصابها لمجرد التفكير بهذا.

وردت عليه بحدة: «إذن، فستنتظر طويلاً إذا ظننت أن هذا ما سيحدث!».

تعاظم الغضب بداخلها وهي ترى حاجباً أسوداً يرتفع بسخرية وارتياب لعنف كلامها.

ورد موبخاً بسخرية: «ما الأمر بيليزا؟ هل أنت خائفة من نفسك

ومن مشاعرك؟ خائفة أن تعترفي أنك امرأة لها حاجاتها؟».

أصبح التحدي صريحاً الآن، فاضطرت إلى تقبّله لأن تجاهله سيفسر على أنه هروب. أدركت أن ريكو أشبه بصياد مفترس سيقفز لدى رؤيته أي دليل على الضعف.. فلو هربت، سوف يصطادها، ولو فكرياً، وسينتهي بها الأمر في وضع أخطر.

وارتفع ذقنها بتحدٍ، وتصادمت العينان الرماديتان بحدة مع العينين البنيتين.

قالت ببرودة: «أنا لا أخاف شيئاً سيد ڤاليرون.. لكنني أفضل أن أختار شريكي بنفسي».

هل كانت تعرف ماذا تفعل به حين تلتقي عيناها بعينيه مباشرة هكذا؟ نعم، هي تعرف جيداً، وتتعمد استفزازه. حتى أنه غضب من نفسه لاستجابته، ولسماحه لها بالانتقام منه بتلك الطريقة البدائية.

لكن شكه بأن إثارة أعصابه هو ما تهدف إليه بالضبط، أوقفه عند حده. وقاوم لكبت الشوق الذي يهدد باجتياح دماغه، ليمحو كل ذكاء، ويأكل كل سيطرة على نفسه.

قال بغضب شديد: «لم تختاري ڤيتابيلز.. ومن العجيب كيف أن وعداً بالزواج والثروة، يمكن أن يغير فكر المرأة.. وبسرعة».

انفغر الفم الممتلىء الوردي اللون بشهقة صدمة وغضب للإهانة المتعمدة، وتشوقت أصابعها لتمسح عن وجهه الوسيم التعبير الساخر.

ـ صحيح أن هذا ليس من شأنك.. لكن ادوارد وأنا لم نعش أيّ علاقة حميمة أبداً! حتى أنه لم يلمسني مرة.

ـ أجد هذا صعب التصديق.. أولاً، أي رجل فيه نقطة دم حمراء، لن يكون قادراً على إبعاد يديه عنك.. وثانياً تجاوبك مع عناقي يظهر أنك لست باردة، كما تدّعين.

احمر وجه فيليستي، وانسحب اللون ثانية بالسرعة التي جاء فيها. وقفت حائرة تتساءل عما إذا كان ردها سيكون غضباً لفظاظته أم رجفة

خجل للتعليق الأخرق الذي وجهه لها.

وربح الغضب: «ولهذا السبب قررت أنني ساقطة، عديمة الأخلاق والمبادىء!».

ـ ليس هذا ما قلته!

ـ بل ما يقرب منه! أنت منافق بوجهين ريكو ڤاليرون! لكن، لمعلوماتك فقط، الرجل الوحيد الذي أحببته، كان خطيبي.

سخر بها ريكو: «خطيب آخر؟ هل من عادتك جمعهم ثم فقدانهم؟ أخبريني، كم خطيب كان لك إجمالاً؟».

ـ واحد فقط!

وانفجر الغضب بداخلها كالدوامة، ليُبعد كل تفكير متعقل أو سيطرة أو أي إحساس بالخطر. رحبت بالغضب بسرور، ممتنة للطريقة التي أطلق فيها لسانها، وترك الكلمات تنصب خارجة كطوفان.

ـ أعني.. رجل واحد حقيقي! فقد كان سكوت حبي الأول.. حبيب قلب الطفولة.. كان «الصبي الساكن في الجوار». وكنا سنعلن خطوبتنا في عيد ميلاده التاسع عشر، لكن.. لكن..

وخنقتها الدموع، وسدت حنجرتها. لكنها ابتلعت ريقها بقوة، تجبر نفسها على الاستمرار، لأنها أرادت أن يعرف الحقيقة.

ـ لطالما كان راغباً في شراء دراجة نارية.. ووفر نصف الثمن. وأهداه والده النصف الآخر يوم عيد ميلاده.. لم يستطع الانتظار ليركبها ويخرج، قال إن لديه وقت يكفي لدورة واحدة قبل بدء حفلة عيد الميلاد.

حاول ريكو التدخل: «فيليستي..».

لكنها تجاهلته.

ـ لكنه لم يعد أبداً.. فقد قادها بسرعة.. وانزلق.. تحت عجلات باص.

ـ يا إلهي!

امتدت يدا ريكو لتمسكا بها حين ابتعدت غير قادرة على مواجهته.

- فيليستي.. أنا آسف حقاً. هذه حماقة وقلة إحساس مني، ولو عرفت لما قلت.. ما كان يجب أن أقول شيئاً.. لقد تصرفت كالنذل.

ردت فيليستي: «أجل.. هكذا كنت!».

- إذا كان هذا يواسيك، فأنا لم أشعر يوماً بمثل هذا الخجل من نفسي في حياتي كلها.

وبدا عليه ذلك.. فقد تكدرت عيناه، وظهرت خطوط توتر غير متوقعة حول أنفه وفمه.

- أرجو أن تسامحيني.

كان اعتذاراً صادقاً حقيقياً. عجزت عن مقاومة التوسل في عينيه، فوجدت نفسها تهز رأسها بصمت، غير قادرة على إنكار مسامحتها.

- هل أحببته كثيراً؟

كان صوته لطيفاً بشكل غير متوقع، أكثر نعومة مما سمعته من قبل.

- في ذلك الوقت.. أجل. لقد ظننت أنه حبي الوحيد. وحين توفي، ظننت أنني لن أحب أحداً مرة أخرى.. أنا..

ولم تستطع الاستمرار، بل رفعت يديها أمام وجهها لتخفي عينيها.

قال ريكو، وقد أساء فهم ردة فعلها: «فيليستي.. أنا حقاً آسف».

تمتمت: «لا بأس.. حقاً لا بأس.. لكنني أرغب في أن تتركني لوحدي».

- لكن..

- ريكو.. أرجوك!

خاطرت بفتح أصابعها قليلاً، ترمي نظرة سريعة إلى وجهه القلق، ثم رمشت عينيها بقوة لتقاوم الدموع.

- أرجوك.. أريد أن أكون لوحدي قليلاً.

لم تكن قد شاهدته من قبل مضطرباً وغير مرتاح هكذا، وآلم هذا بحدة مشاعرها المجهدة، وجعلها تعض شفتها السفلى ببؤس.

- أرجوك.

للحظة متوترة طويلة، ظنت أنه سوف يرفض، ودبّ الذعر في دماغها، محاولة التفكير بحجة مناسبة لإقناعه. أي شيء ما عدا الحقيقة.

رددت مرة أخرى: «أرجوك».

وارتجف صوتها. مرّر ريكو كلتي يديه في شعره الحريري الأسود، ونفث أنفاسه في هسيس طويل خشن، عبر أسنان مشدودة.

وقال بخشونة: «حسن جداً، سأتركك بسلام».

ظن أنها لم تسامحه.. وأدركت فيليستي هذا. وكان الإحساس بالنبذ والكرامة المجروحة مطبوعاً على كل خط في جسمه، وفي حركته المتصلبة وهو يغادر الغرفة.. فقد ظن أنها لم تقبل اعتذاره.. وهي لم تستطع أن تناديه لتطمئنه.

لكن لو فعلت هذا، فلن يكون هذا كل ما تفعله. لو قالت له إنها تسامحه، فلن تتمكن من التوقف عند هذا الحدّ.. ستضطر إلى المتابعة، ولا بد أن تقول له شيئاً آخر، شيئاً اكتشفته لتوها. شيء جديد مدمر، قد ينسف عالمها ويحوله إلى قطع صغيرة ولن تتاح لها فرصة جمع هذه القطع مجدداً، ناهيك عن وضعها في مكانها المناسب.

«حين مات ظننت أنني لن أحب أحداً مرة أخرى».

عادت الكلمات التي قالتها بتسرع، تطاردها وكأنها تؤنبها.

ولم تستطع سوى أن تصلي كيلا يكون ريكو قد التقط التردد المؤقت ولا الارتجاف في صوتها، فهذا سيفضح تلك اللحظة التي أوقفت فيها الصدمة قلبها. تمنت لو لم يسمع التكسر في كلماتها حين جعلتها أفكارها تتلعثم، ودفعتها للاختفاء وراء يديها. لكن، ليس كما ظن، لإخفاء دموعها.

«لقد ظننت أنني لن أحب أحداً مرة أخرى».

أدركت في تلك اللحظة لمَ أثّر ريكو عليها هكذا. ولماذا جرحها بشكل سيء حين عرض عليها عرضه المخزي.. في حين كان هذا ما عرضه ادوارد عليها.

لكن عرض ادوارد لم يلامس مشاعرها، فقد رأت فيه طريقاً للهرب من طريق مسدود فحسب ولم يؤثر على مشاعرها، ولم يجعلها تهتم.

ريكو جعلها تهتم. وفعل أكثر من هذا.. جعلها تشعر، تتألم، وجعل قلبها يغني، ليرتفع إلى السماء ثم يسقط إلى أعمق أعماق الألم. والسبب، كان بسيطاً ومعقداً، كسبب وجودها هنا معه وهو محصور بكلمة واحدة بسيطة.

الحب.

إنها تحبه.

في فترة يومين، أسرها ريكو، وأخذها رهينة لغاياته، واستخدمها كرهينة كي يحصل على المكسب الذي خطط له.. وهكذا قلب عالمها رأساً على عقب، وشتت المستقبل الذي ظنت أنه أمامها.

لكنه فعل أكثر من هذا بكثير. لقد أخذ قلبها رهينة أيضاً.. ولا يمكن لأي صفقة أو فدية أن تعيد قلبها لها. رغم أنها لم تعد سجينته، بل تستطيع المغادرة متى شاءت، تعرف في أعماقها أنها لن تكون أبداً حرة حقاً، مرة أخرى. فالهرب، يعني ترك ريكو، ولو بقي هنا، فسيبقى قلبها معه، وبغياب قلبها ستغدو نصف إنسان.

* * *

١١ ـ الوحش الذي أحببته

ـ أظن أنه سيكون هناك رعد وبرق الليلة.. فالجو مثقل وكأن عاصفة تتجمع.

فكرت فيليستي أن ريكو يقصد المحيط الهادىء. فهو يشير إلى تجمع الغيوم، والضغط المنخفض في الجو. لكن، كان يمكنه أن يعني الجو العاطفي بينهما.. فقد مضت أيام على حديثهما، وما زال المزاج غير مريح يفرض توتراً لا يحتمل على أعصابها.

تمتمت بألم وهي تعي المعنى المزدوج لكلامها: «عاصفة رعدية قد تريح الأمور.. فالجو دبق وثقيل، وليس الطقس بمناسب للخروج والتفرج على المناظر».

لكنها عرفت لما اقترح ريكو الرحلة إلى «بوينس آيرس» فلو أنه اقترح هذا مباشرة وأعلن أنه يستغل زيارته إلى عاصمة الأرجنتين كحركة متعمدة لإبعادهما عن البقاء في أسر المنزل معاً، لكان هذا أكثر صدقاً من الادعاء أن الرحلة هي فقط للتفرج على المناظر.

غاب الصدق عن علاقتهما، أو بالأحرى، كانت جرعة الصدق الزائدة نتيجة مواجهتهما يوم وصولها إلى الآنستانسيا قد دفعت بكليهما إلى زاوية منفصلة بعيدة عن بعضهما البعض. وما تبادلاه من حديث كان متصلباً ومرتبكاً، ومتطرف الأدب. كانا مثل غريبين تماماً، جرى تقديمهما إلى بعضهما للتو، ولم يتفقا أبداً.

والغريب في الأمر، أنهما كانا يتواصلان معاً بشكل أفضل حين كانا

يعرفان بعضهما أقل. وحين خطر لها أن التواصل الذي عرفاه في أول يوم من لقائهما كان وليد ساعته، تحركت دونما ارتياح في مقعدها، محاولة بيأس أن تمحو أفكارها.

لكن ذكرياتها رفضت أن تبتعد. وبدلاً من ذلك عادت الذكريات مرات ومرات إلى رأسها، مشرقة واضحة، وحيّة بشكل صادم. صور العناق وضربات القلب المتسارعة، هاجمت أحاسيسها إلى أن تحركت متململة على المقعد الجلدي الناعم، عاجزة عن الهرب منها.

لاحظ ريكو تململها، ورماها بنظرة سريعة متسائلة: «هل أنت على ما يرام؟».

وتمكنت من أن ترد: «بخير.. أشعر بالحر فقط. هذا الطقس يثير الاضطراب».

لكن شعورها لم يكن له علاقة بالطقس. فما كان يزعجها حقاً هو الإحساس الحاد بالرجل الجالس إلى جوارها.

كان كُما قميصه مرفوعين ليكشفا عن ساعدين طويلين برونزيين، يشتدان مع كل تكيف تحتاجه الطريق. رمى نسيم دخل من النافذة نصف المفتوحة، بشعره الأسود حول جبهته المرتفعة، ونفخ برائحة جسمه النظيفة نحوها. كان يضع اليوم عطراً لاذعاً جعلها تفكر بالليمون الحامض والأعشاب المطيبة وهي تتنشق بنهم ثم تتوقف في موجة حرج وهي ترى عينيه القاتمتين تتجهان نحوها.

وموّهت تصرّفها بالسؤال بسرعة: «ما هي هذه الأشجار؟».

كانت ممتنة لأنهما يمران بأشجار تحدد الطريق، وتحجب الشمس مؤقتاً.

ـ رائحتها مألوفة لكنني لا أستطيع تحديدها.

قال ريكو: «إنها أشجار الأوكاليبتوس».

وضغط الزر الذي يتحكم بالنافذة ليترك المزيد من العطر يدخل إلى السيارة.

ـ إنها تنمو في كل مكان هنا. هل تحبين أن نتوقف في مكان ما لشرب شيء؟

أكدت له بسرعة: «لا.. لا.. أنا بخير. إذا كنت تعتقد حقاً أن هناك عاصفة قادمة، فيجب أن نعود إلى البيت.. نعود إلى «لا إستريلا» قبل أن تنفجر».

غطت بسرعة زلة لسانها. أرادت أن يعودا إلى البيت علماً أن «لا استريلا» ليست بينها. وتطلعت دون أن ترى إلى خارج النافذة، تجبر نفسها على مواجهة الوقائع.

لقد أحبت «الانستازيا» الجميلة، كما أحبت مالكها. لكن هذه ملاذ مؤقت، ملاذ تستطيع أن تختبيء فيه لوقت قصير. وقريباً جداً، ستغادر وتعود إلى لندن، وعليها أن تواجه الحقيقة مرة أخرى.. حقيقة تشمل الديون الرهيبة التي ما زال والدها مديناً بها، وما من طريقة ممكنة لتسديدها.

أثبت ريكو مرة أخرى أنه حساس أمام مزاجها: «لِمَ هذه التنهيدة الداخلية العميقة؟».

ـ كنت أفكر بالعودة إلى الوطن.. هل تظن أن الصحافيين تعبوا من الانتظار الآن؟

إذن، لقد بدأت تتشوق للعودة. واشتدت يدا ريكو على المقود حتى أن عقد أصابعه بدت بيضاء تحت بشرته الملونة. لقد افترض حدوث هذا في أي لحظة.. فلقد كانت متململة بوضوح منذ يومين.

ـ أعتقد أنه بعد مرور يومين من دون نشاط أو أثر لطريدتهما قد ضجروا جداً.

كان مسروراً جداً للسيطرة التي لا ترحم والتي أبقت رده صريحاً وغير مكترث بالرغم من أن أفكاره تدور حول موضوع مختلف تماماً.

ـ لكن لو ظهرت باكراً، فستنعشين اهتمامهم. خاصة إذا عدت وحدك.

ـ من دونك تعني؟

ـ أجل. من دون المليونير الذي من المفروض أنك تخليت عن خطيبك لأجله.. فسيرغبون عندها في معرفة ما حدث فعلاً.

ماذا يفعل؟ هل يحاول إقناعها بالبقاء؟ أيريدها أن تستغله مجدداً؟ ووبخ ريكو نفسه.. ألن يتعلم أبداً؟

أولم تجعل رأيها به واضحاً حين رمت رفضها له في وجهه، وأعلنت أنها تفضل أن تكون مع ادوارد ڤيتابيلز بدلاً منه؟ ومع ذلك أنقذها من الصحافيين. وجاء بها إلى هنا، وهو يأمل بغباء أنها قد تغير رأيها بعد أن يمضيا بعض الوقت معاً.

ماذا قال؟ أن يكون خيارها؟ وأن عليها أن تأتي بإرادتها.. حتى أن تقول إنها تريده، هاه!

وتأرجحت السيارة بحدة مع اشتداد قبضة يديه مجدداً على المقود، واضطر إلى إجبار نفسه على إعادتها تحت السيطرة قبل أن يفضح نفسه تماماً.. سيكون يوماً بارداً طويلاً قبل أن تأتي هذه السيدة إليه بإرادتها. وإذا كان هناك فرصة لعكس هذا.. فسيخسرها بتصرفه الفج كما حدث ساعة تكلمت عن خطيبها الشاب.

لقد أغلقت أي أبواب فتحها وبقيت مغلقة بثبات منذ ذلك الوقت، ولم يكن يعرف لما لم يستسلم ويتركها تذهب.

لأنه لم يستطع، هذا هو الرد البسيط، فهو لم يشعر هكذا نحو امرأة من قبل. وفيليستي شقّت طريقها إلى دماغه، ولم يستطع إخراجها.

ـ.. ألا تظن هذا؟

أدرك أن فيليستي كانت تتكلم. ولأنه كان مستغرقاً في أفكاره لم يسمعها.

ـ عفواً؟ أنا آسف.. ماذا قلتِ؟

ـ إن ادوارد قد عاد حتماً.. أولن يوضح الأمور؟

ـ أشك في هذا، فكما فهمت، لديه أشياء أخرى تشغل تفكيره.

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل زوجته الجديدة.

لم تستطع فيليستي تصديق ما تسمع: «زوجته! كيف يمكن لهذا أن يحدث؟».

لكن ريكو بدا غير مبال بالرد على سؤالها، وبدلاً من ذلك طرح سؤالاً: «أخبريني مي بيليزا».

بدا واضحاً أنه يركز على قيادة السيارة.

ـ ألن تسأليني أبداً لما أنت هنا؟

ـ أعرف لما أنا هنا.. بسبب الصحافيين.. لا؟

وتساءلت بينما كان يهز رأسه الأسود: «قبل هذا. ألم تفكري بأن تسألي لما اختطفتك في المقام الأول؟».

ـ فكرت مئات المرات.

لكن لم تكن لديها الشجاعة لتسأل، فقد كانت خائفة من الجواب. وبما أنها أدركت شعورها نحو ريكو فقد كَبُر ذلك الخوف وأصبح أكثر سوءاً.

ـ لكنك لا تتوقع أن أصدق، أنك ستخبرني بكل بساطة.

وصلا إلى البوابة المزدوجة الكبيرة من الحديد المشغول عند المدخل الرئيسي «للااستريلا» واتجها صعوداً في الطريق الداخلية المتعرجة المؤدية إلى منزل المزرعة.

ـ لك الحق بأن تعرفي.. ولا يزال لديك هذا الحق.

كانت النظرة التي رمقته بها مرتابة: «وهل تتوقع أن أصدق؟».

التوى فم ريكو، لكنه لم يقل شيئاً إلى أن وصلا آخر الطريق الداخلية، حيث أوقف السيارة بحدة، وشد المكبح اليدوي وأطفأ المحرك، ثم استدار إليها.

وقال آمراً: «اسألي».

ابتلعت فيليستي ريقها بقوة. وبحثت عن الكلمات، لكن لم يخرج

شيء، مجرد كلمة واحدة.. سألت: «لِمَ؟».

ـ بسبب ماريا.

هذا أمر غير مفهوم.

ـ ماريا من؟ لا يمكن أن تعني ماريا ليولين.

ـ ومن غيرها؟

ـ لكن.. من هي بالنسبة لك؟

وضربت أصابع ريكو الطويلة النحيلة فوق المقود للحظة، ثم توقفت بحدة.

ـ إنها أختي.

كان عليها أن تعرف أنه لن يقول لها الحقيقة. ودون أن تفسح المجال لتتألم من خداعه، فتحت الباب بحدة، ودفعته لتخرج متعثرة ودون لباقة.

ـ فيليستي...

لم يكن ريكو بعيداً خلفها. وأمسك ذراعها حين حاولت الابتعاد، وأدارها لتواجهه وهو ينظر إلى عينيها الرماديتين الغاضبتين.

صاحت: «أوه.. أجل.. مضحك جداً!».

وكرهته وكرهت نفسها لأن ما قاله أثر بها كثيراً، وأكملت: «وهل تتوقع مني أن أصدق أن ماريا ليولين التي أعرف قطعاً أنها «ويلزية» هي في الواقع أخت ريكاردو ڤاليرون.. الذي بكل تأكيد ليس من ويلز؟».

سأل ريكو بهدوء: «ولِمَ لا؟ فهذه هي الحقيقة».

ـ أوه.. هيا الآن..

لكنها تذكرت شيئاً عرفته في بوينس آيرس بعد ظهر ذلك اليوم.

وهي تفتش في محل بيع للكتب، مرت على كتاب تاريخ للأرجنتين، وذهلت لمعرفة أن في هذه البلاد عدد كبير من المهاجرين من مقاطعة ويلز ممن بقوا في الأرجنتين وأسسوا عائلات.

ـ أختك؟

صحح لها ريكو: «حسن جداً نصف شقيقة. فقد تزوجت أمي

ريتشارد ليولين بعد أن تطلقت من أبي. وماريا أصغر مني بعشر سنوات.. فهي بالكاد تبلغ الواحدة والعشرين من عمرها.. وقد مات والدها حين كانت في سن الثالثة فقط وأفسدتها أمي دلالاً».

تمكنت فيليستي من أن تقول متصلبة: «لقد قال لي ادوارد الشيء ذاته.. لكنه كان أقل أدباً.. وقد وصفها «بالسيدة الصغيرة»».

ـ أجل.

كانت ابتسامة ريكو الجانبية جميلة بشكل مدمر.. وضغطت بحدة على قلب فيليستي. لكنها رفضت أن تترك نفسها تضعف..

ـ لقد التقت ادوارد في عطلة.. ووقعت في حبه مباشرة. لكن، ولأنها ماريا، لم تقل هذا. كانت تعرف أننا متنافسان في العمل.. وأعتقد أن هذا ما زاد من حدة الأمور. وكانت ماريا قادرة تماماً على رؤية نفسها بصف روميو وجولييت، مع أخ كبير تعطيه دور النذل إذا أرادت. وربما لهذا السبب لم ترغب في أن تقول لي إنها حامل.

ولم تكن فيليستي تتوقع هذا: «حامل؟ ومن ادوارد؟».

هز ريكو رأسه بتعبير متجهم: «كانا في هذه الأثناء متخاصمين.. ومنفصلين. وقالت إنها لا تريد شيئاً منه، وذلك قبل أن تكتشف أنها حامل. ولم تقل لأحد لمدة أشهر، وإلى أن قالت، كان ڤيتابيلز قد أعلن عن زواجه منك».

تذكرت فيليستي: «كان ذلك الترتيب مستعجلاً».

وارتجفت للطريقة التي أدار فيها ادوارد بكل قسوة الموقف لصالحه.

وأساء ريكو فهم ردة فعلها.

ـ الريح تشتد. وأعتقد أن المطر قادم، ومن الأفضل أن ندخل المنزل.

حاول الإمساك بذراعها لكن فيليستي انتزعتها منه مبتعدة، غير قادرة على تحمل لمسها. إنها لم تكن سوى لعبة في يد ادوارد، ويبدو أنها الآن هكذا بالنسبة لريكو.. لكن ما الذي توقعته؟ فهي لا تعني له شيئاً، ولم تكن يوماً، ولن تكون.

لفت ذراعيها بقوة حول جسمها، وسارت بشراسة أمامه، عاجزة عن النظر نحوه. . توقفت في الردهة المرصوفة بألواح حجرية على حين غرّة واستدارت لتواجهه: «هل تقول لي إنك خطفتني. . وأخذتني رهينة. . من أجل ماريا؟».

وتلقى نظرتها المتهمة برباطة جأش مذهلة، لكن لم يفتها ملاحظة الطريقة التي اشتد فيها فمه ليصبح خطاً رفيعاً قاسياً قبل أن يُطرق رأسه بجفاء.

ـ لم يصغ ادوارد إليها. . قال إنه مصمم على الزواج منك. وأعتقد أن كلاً منهما كان يحاول تسجيل نقاط على الآخر. . فهما لم يدركا خطورة ما يفعلان، وحين بدا أن الزواج سيسير قدماً، قاربت ماريا على الانهيار. . أصيبت بالاكتئاب، والهستيريا، وأخذت تتكلم عن الانتحار، فتوسلتني أمي كي أساعدها!

ـ أوه. . أراهن أنها فعلت هذا!

وكان من المستحيل احتواء الألم مدة أطول، وانسكب في كلمات مريرة، ولهجة متوحشة: «وفكرت أن تفعل شيئاً للصغيرة ماريا. . أن تتقدم وتدمر حياة شخص آخر. فعلى أي حال، الشخص الآخر غريب تماماً. . فتاة إنكليزية سخيفة لا أهمية لها! شخص، كل ما تعرفه عنها أنها قد تكون واقعة بجنون في حب ادوارد!».

وأصاب السهم هدفه، ورأته يجفل قليلاً. لكنه استعاد رباطة جأشه فوراً.

ـ لكنك لم تحبيه. . أليس كذلك؟ لقد قالت ماريا هذا، وكانت تعرف أن الزواج لن يكون ملائماً. . وأنك تتزوجين ادوارد من أجل ماله. وقالت إنني لو استطعت إيقافك عن الذهاب إلى الكنيسة، فهي متأكدة من أنها ستصل إلى ادوارد، وتقنعه بأن يستمع إليها. . وتخبره عن الطفل.

ـ وبعد ذلك تعيشون جميعاً بسعادة؟ الحل المكتمل!

رمت فيليستي يديها في الهواء بإيماءة متوحشة عكست العذاب داخل

قلبها. . وأكملت: «وأعتقد أنه لم يخطر ببالك أن تأتي إلي. . وتكلمني عن كل هذا؟ هل حاولت حتى. . ».

رد ريكو يقاطعها: «بالطبع حاولت! حاولت لأيام قبل موعد الزواج، لكنني لم أستطع الوصول إليك. كنت تقيمين في منزل والديك «هايسون هاوس» إذا كنت تذكرين. . آمنة في أحضان عائلة ادوارد، ولم تردي على أي مكالمة، وارتدت كل رسالة دون أن يقرأها أحد».

ـ لقد طلب مني ادوارد أن أتصرف هكذا.

ولأول مرة خبا غضب فيليستي، ليتركها تشعر بالكدر والضعف المثير للاضطراب، لم يكن قد خطر ببالها أن لإدوارد سبب شخصي يدفعه لإبقائها بعيدة عن ريكو في ذلك الوقت.

ـ قال لي إن الأمر أكثر أماناً هكذا لأنك. .

وتلاشى صوتها، فحثها على الكلام بخشونة: «لأنني. . ماذا؟».

وأدركت فيليستي الاتجاه الخطير الذي تتجه إليه.

لقد قال لها ادوارد إن ريكاردو ڤاليرون واحد من دائني والدها، وإن جو هاملتون مدين له بثروة صغيرة. . وإن ريكو معروف بقسوة قلبه في انتقامه ممن يحاول إنكار دينه عليه.

وكان قد قال لها: «فقط، لا تكلميه، لا تصغي إليه، لا تقرأي رسائله، وما إن نتزوج، حتى أسوّي الأمور معه وسيكون والدك بأمان».

لكنها لن تستطيع قول هذا لريكو. . ليس الآن. حين جاءت إلى الأرجنتين مع ريكو، لاح لها أمل ولو خفيف وضعيف، أنها يوماً ما، وبعد أن تكتسب ثقته وصداقته، قد تتمكن من إخباره بالحقيقة. كما أنها ستتمكن من الاعتراف بما فعله والدها، وتتوسل الحصول على فرصة ما لتصحيح الأمور، وتسديد الدين الضخم بكميات صغيرة وعلى مرحلة طويلة. لكنها لا تستطيع أن تخاطر في كشف هذا لهذا الرجل. ليس لريكو هذا الذي من الواضح أنه لا يشعر بأي دفء نحوها أبداً. . هذا الرجل الذي استغلها دون شفقة، وهو قادر على استغلالها مرة أخرى لو اكتشف أن له

عذر.

وحثها ريكو مرة أخرى، بعد ترددها: «إنني ماذا..؟ فيليستي».

- إنك وحش قاس.. «لا تكاد تكون متمدناً» هذا هو الوصف الذي استخدمه. وأعتقد أن الوصف صحيح جداً.

وأصابته حيث آلمته هذه المرة، في كرامته كرجل، ورأت رأسه المتعجرف يرتفع إلى الوراء، وعيناه تضيقان بسرعة، وفمه يرق بخشونة: «وحش وقاسي.. هه؟».

كان قد نسي أنها تستطيع أن تبدو هكذا.. نسي الطريقة التي تستطيع فيها أن تنظر من فوق هذا الأنف الأنيق نحوه. وتتطلع إليه وكأنه ليس إلا قطعة متسخة من الغبار، علقت في حذائها. فقد أثر به تصرف سيدة القصر هذا، بطريقة خاطئة منذ البداية، وها هو يشعر أنه يكرر فعلته.

وفيما هي تنظر إليه هكذا، لم يستطع التفكير إلا بمدى جمالها، وبشعرها المسترسل بنعومة حول وجهها، وبعينيها الرماديتين اللتين تحيط بهما رموش طويلة ملتفة، وبفمها الممتلىء الذي وضعت عليه أحمر شفاه زهري. كان جمالها متدفقاً يطعن كل إحساس فيه، وثنايا جسمها النحيلة تزدان جمالاً بفستان قطني أزرق.. ياقته المفتوحة تكشف عن خطوط عنقها وحنجرتها، فيما يكشف الكمان القصيران عن ذراعين طويلتين ونحيلتين.

- ولا أكاد أكون متمدناً؟

وهو الآن لا يشعر أبداً بأنه متمدن. فمع وقوفها هناك، رأسها مرتفع إلى الوراء، وعيناها براقتان بالغضب، وتلك الذقن مرتفعة تحدياً، عليه أن يقاوم بشدة كيلا يستسلم لغريزته.

قال: «حين اختطفتك.. هل آذيتك بأية طريقة؟ هل جرحتك وأخفتك.. أو حتى هددتك بالخطر؟ في كل الوقت الذي كنا فيه معاً هنا، في هذا المنزل، هل شعرت أنك في خطر، وأنك لست آمنة؟».

- أنا..

- حسن جداً.. هل شعرت بهذا؟

اعترفت فيليستي: «لا».

ولم تكن تريد أن تتراجع لكنها أدركت أيضاً أنها لا تستطيع الكذب في هذا. والحقيقة هي أن توترها الطبيعي نحو ريكو في البداية سببه الموقف الذي كانت فيه وتفكيرها وليس تصرف ريكو.

وكررت: «لا».

- وهل وضعت إصبعاً عليك.. ما عدا يوم عانقتك لأول مرّة؟

- لا..

وانخفض نظرها إلى الأرض، واحمر خداها، ولم تستطع النظر إلى وجهه، وتذكرت ذلك الوقت الذي عانقها فيه دون أن تعترض أبداً.

تمتمت: «لقد اختطفتني».

وسمعت صوت أنفاسه تهس عبر أسنانه في صوت نافد الصبر.

- وشرحت لك السبب.. سعادة أختي، وربما حياتها، كانت على المحك.

وصفع الألم قلب فيليستي. فهي مستعدة للتخلي عن الدنيا في سبيل أن يهتم بها كما يهتم بماريا. كل ما كان هو رهان في لعبة محسوبة بكل برودة.

ومغازلته لها؟ هل كان هذا محسوباً كذلك؟

- أختك! كل ما تتكلم عنه هو أختك! حتى أنك لا تتمتع باللياقة لتعتذر عن اختطافك لي.

جاءت ضحكته قاسية قصيرة، دون رحمة، وغير متوقعة.

وردد بسخرية: «أعتذر؟ تريدينني أن أعتذر لأنني أبعدتك عن زواج لا تريدينه.. وعن رجل لا تحبينه؟».

- أنا..

أرادت أن تجد كلمات غاضبة ترد فيها على سؤاله الساخر. لكن دماغها كان فارغاً تماماً.

ـ أم أنك كنت تفضلين لو تركتك تتزوجين ڤيتابيلز؟ ولما التقيت عندها بريكو أبداً؟

ـ لا.

ـ إذن، أنا لن أعتذر بالتأكيد.

وكيف له أن يعتذر عن شيء أدخل هذه المرأة إلى حياته؟ حتى ولو كانت هذه الأيام القليلة هي كل ما سيحصل عليه، فلن يندم عليها أبداً، ولا لثانية. لقد أشرقت أيامه بوجودها، وعذبته، وأغضبته، ودفعته إلى ما يقرب الجنون سخطاً ورغبة. لكنه لن يحصل على هذا بأية طريقة أخرى.

ـ أنا لست نادماً أبداً.

وارتفع رأس فيليستي مرة أخرى بسرعة، وارتد شعرها الأشقر إلى الوراء بحدة.

وأعلنت بتركيز، تريد أن تجرحه لشدة ما تشعر بالجرح: «أوه.. لكنني آسفة! أنا آسفة جداً لأنني التقيت بك! ولا أطيق حتى أن أكون في الغرفة نفسها معك! ولو كان لي الخيار.. وهو ما لم تمنحني إياه.. لاخترت قطعاً الزواج من ادوارد، وكنت أتمنى لو تركت لي هذا».

شكّل كلامها هذا صفعة أكيدة في وجهه. كان هذا سلاحها الوحيد كي تثير أعصابه وتدفعه من فوق حافة الجرف الذي حاول جاهداً الابتعاد عنه.

وأكملت: «كم أتمنى لو أنك ابتعدت عن حياتي وتركتني بسلام».

ـ الآن، هذا الشعور متبادل!

دهش لأن المرارة التي يشعر بها لم تظهر في صوته. بل ظهر صوت بارد قاطع ومسيطر، وأكمل: «لكنني قادر على تسهيل الأمور عليك».

وهذا ما أوقفها كالميتة. ورمشت بعينيها وأكمل: «سأخرج الآن.. وسأتركك لوحدك كما تريدين. فلو بقيت، أعتقد أننا سنقول لبعضنا أشياء سنندم عليها».

وهي ندمت فعلاً.. وتمنت لو تسترجع كلامها. لكن الوقت كان قد

تأخر كثيراً، نظراً للنظرة المتحجرة الباردة المتباعدة التي غشت عينيه البنيتين الجميلتين. واختفى كل غضبها بسرعة، لتترك بؤساً كليلاً أطبق على حنجرتها، وجعل الكلام مستحيلاً.

ـ إذا كنت حكيمة، فستستخدمين هذا الوقت لتجمعي أغراضك وتوضبي حقائبك. وحين أعود، سأقوم بالترتيبات كي تصلي إلى المطار، في طريقك إلى موطنك هذه الليلة.

لكنني لا أريد الذهاب إلى موطني!

واحترقت الكلمات في رأسها، لكنها لم تستطع أن تتلفظ بها. وحين استعادت قدرتها على الكلام كان قد غادر الغرفة وصفق الباب وراءه.

قالت بصوت متكسر كئيب وهي تعرف أن ما من أحد يسمعها: «لكنني لا أريد أن أعود إلى موطني.. أريد أن أبقى هنا معك».

* * *

١٢ ـ من قلب العاصفة

تفجرت العاصفة فوراً ولم يكن قد مضى على رحيل ريكو سوى خمس دقائق، وكانت فيليستي لا تزال واقفة في الردهة الكبيرة، عاجزة عن التفكير بما تفعل.

لن تستطيع توضيب حقائبها.. لأنها لا تريد الذهاب إلى أي مكان.

لكنها خشيت عودة ريكو ليجد أنها تجاهلت الأمر الذي رماه في وجهها.

وانتظرت.. وانتظرت، وتفاقم قلقها مع مرور الدقائق، وازدياد العاصفة جنوناً. راح المطر يضرب زجاج النوافذ، والرعد يهدر، والبرق يشق كبد السماء.

بعد مرور ساعة ونصف على غيابه، كانت فيليستي مذعورة من القلق، وامتلأ دماغها بصور مريعة مرعبة. تصورت ريكو في مكان ما في الخارج وسط العاصفة مبللاً، أو ربما مصاباً بأذى، أو مصطدماً بجذع شجرة أسقطتها الريح. مرت نصف ساعة أخرى دون أي أثر له، ممّا دفعها إلى غرفتها لتغير ملابسها، فقد قررت ارتداء بنطلون جينز وقميص أبيض لأنهما أكثر عملية من الفستان الأزرق الخفيف، في حال اضطرت إلى المغامرة تحت المطر المنهمر بحثاً عن ريكو.

كانت تنزل السلم راكضة حين انفتح الباب الرئيسي الكبير، منصفقاً في تراجعه على الجدار، ودخل ريكو الردهة.

ـ لقد عدت!

رغم أن السؤال بدا غبياً وتافهاً، فهو كل ما استطاعت قوله.. فقد جعل الارتياح والغبطة لرؤيته سالماً قلبها يقفز بتقطع، ثم يخفق بسرعة داخل صدرها.

ـ أنت مبلل تماماً!

تعليق غبي آخر، كان شعره الأسود ملتصقاً برأسه، وقد احمر وجهه من المطر. والتصق القميص والجينز بخطوط صدره وساقيه القوية والرشيقة.

أرادت أن تركض إليه، وتضمه بين ذراعيها، وتحضنه بشدة، لكنها أرادت في الوقت عينه أن تبقى حيث هي تنظر إليه لتتأمله.

ـ أين كنت؟

مسح ريكو المطر عن جبينه ومرر يده بخشونة عبر خصل شعره التي ترشح ماءً.

ـ لقد خرجت في نزهة على الجواد.

والتقت عيناه الأبنوسيتان بعينيها الرماديتين القلقتين، وهي تقف على السلم، على بعد خطوات.

ـ نزهة على الجواد وفي هذا الطقس؟ هل أنت مجنون؟ كان يمكن أن يصيبك مكروه!

ـ الفرس على ما يرام كواريدا.. ولو عرفت أنك ستقلقين على جواد..

ـ أنا لا آبه أبداً للجواد اللعين! وأنت تعرف جيداً أنني قلقت عليك!

التوى فم ريكو الجميل سخرية، كتحذير.. ولم يخب أملها: «فهمت.. تريدين التأكد من عودتي سالماً وفي الوقت المناسب لأقلك إلى المطار».

وشدت على أسنانها.

ـ لم أكن أريد هذا! أولاً، أنا لست ذاهبة إلى موطني!

ـ لكنك ترتدين ثياب السفر.

ـ لقد ارتديت الجينز . .

وأخذت تنزل السلم ووقفت أمامه مباشرة، قريبة جداً منه فرأت قطرات المطر الصغيرة تلمع على رموشه السوداء، وأكملت: «. . لأنني فكرت أن أخرج في العاصفة بحثاً عنك».

أفقده كلامها هذا توازنه، لثانية واحدة أو اثنتين، واكتشفت لمعان إحساس قوي لم تتعرف عليه في أعماق عينيه من قبل. ولكن قبل أن يتسنى لها الوقت للقيام بردة فعل، اختفى اللمعان وعادت النظرة الفارغة الزجاجية إلى مكانها.

ـ هذا إطراء لي غاتيتا. لكن كما ترين، أنا ولد كبير أستطيع العناية بنفسي، ولا أحتاج إلى مربية أطفال.

ـ وأنا لا أعرض أن أكون مربية أطفال! رغم أنني أعتقد بصدق أنك بحاجة لمن يعتني بك!

واختلط السخط مع التردد في صوتها. فهي تتكلم دون تفكير، لا تعرف كيف سيتمكن ريكو من الإجابة على أقوالها. . ساروها إحساس بالرعب، فلو سارت على حبل مشدود فوق شلال لما ارتعبت هكذا.

ـ انظر إلى نفسك وأنت تقف هنا مبللاً. من الأفضل أن تخلع هذه الملابس وتأخذ حماماً ساخناً. .

تبخرت بقية الجملة من تفكيرها وهي ترى الطريقة التي نظر بها إليها. عيناه البراقتان نصف مغمضتين تلمعان خلف رموشه السوداء الطويلة. ولم يكن بحاجة إلى الكلام ليخبرها بما يفكر.

لم ينظر إلى الخلف وهو يمر بها، ولم يلتفت حوله وهو يصعد السلم.

وتذكرت كيف بدا وهو يدخل من الباب، وأحست بالشوق يغزو أحاسيسها. ومن أعلى السلم جاء صوت الماء يجري في حمام ريكو، وقبل أن تعرف ماذا تفعل، وضعت قدماً على السلم، ثم أخرى.

كانت تقف في فسحة السلم العليا أمام الباب المفتوح حين خرج من

الحمام، وهو يلف على خصره منشفة بيضاء. وكان التناقض بين بشرته السمراء القاتمة والقطن الأبيض الناعم صادماً.

لم يبدُ منزعجاً لظهورها. والتقت عيناه بعينيها مباشرة، وبرزت فيهما لمحة تحدٍ، تجاهلها ببساطة، ودخل غرفته ليأخذ ثياباً نظيفة. اختار قميصاً أبيض وبنطلوناً أسود، من الخزانة.

ـ أنا مستعد لتقديم عرض مسرحي إذا كان هذا يثيرك.

هاجمت لهجة ريكو الجافة أفكارها وجعلتها تتعثر.

ـ لكنني أعتقد أن هناك نوع من المقاييس المزدوجة هنا.

ـ معايير مزدوجة؟

نظرت إلى ريكو كمخلوق غابة صغير ومتوحش، وضع أمامه على سبيل الإغراء، حفنة من الطعام، وهو يتقدم إلى الباب، متردداً في قراره لا يعلم إن كان عليه أن يتقدم أكثر أم يهرب. . وبعينيها الرماديتين المتسعتين والمتوترتين، وجسمها النحيل المتصلب الحذر، كل ما تحتاج إليه هو حركة خاطئة لتستدير وتهرب، ولن تعيد الكرة مرة أخرى.

قال: «أجل. . فلو أنني وقفت بباب غرفة نومك هكذا، لصرخت بانزعاج. . ولوصمتني بالمتلصص، مختلس النظر».

لا. . لقد أصاب هدفاً خاطئاً هنا. . واستطاع رؤية التراجع في عينيها، لا سيما وأنها خطت خطوة إلى الوراء.

ـ أنا. . أنا آسفة.

ـ لا تأسفي غاتيتا. .

ولطّف صوته توترها وهدأه ثم أكمل: «وكما قلت. . لا بأس في هذا بالنسبة لي، لكن هذا يفرض السؤال. . لماذا؟».

ـ لماذا؟

بدت مذهولة مرتبكة، وكأنها لم تفهم السؤال، فهي حقاً لم تكن تعرف ما تريد، أو لعلها خائفة من قول سبب وقوفها هنا. ويجب عليه أن يخوض في هذه المسألة بحذر، وأن يأخذ الأمور بروية.

مد يده إلى قميصه، ودس ذراعيه في الكمين.

ـ هل ستقولين لي لما أنت مصرة على عدم العودة إلى موطنك؟

ـ أنا.. أعتقد، أنه لا زال لدينا عمل لم ينته بعد.

فكر ريكو بالجملة وهو يزرر قميصه، ويترك الياقة مفتوحة.

ثم سأل وهو يدس قدميه في حذاء جلدي مرتفع الساقين.

ـ أي نوع من العمل لم ينته بعد؟

الآن وهو مرتد ثيابه، استطاعت أن تفكر بوضوح، وأن تُبعد أفكارها عن الطريق الذي كانت تسير فيه، طريق ملؤه خيالات حول هاتين الذراعين القويتين وتلك البشرة البرونزية، واليدين القويتين.

لكن الشوق المؤلم لم يغب بل ما زال ينبض ببطء في جسمها.

ـ عمل شخصي..

وتكسر صوتها مع الكلمات، واضطرت أن تجلي حنجرتها قبل أن تكمل: «.. ما أريده..».

متى اقترب منها هكذا؟ فهي تقسم أنه كان منذ ثوانٍ قليلة في الجهة الأخرى من الغرفة. لكنه فجأة وقف هناك، بجوارها، وعيناه العميقتان تحتجزان عينيها بسهولة.

قال يشجعها بصوت منخفض بعد ترددها: «أخبريني.. قولي لي ماذا تريدين، ولو كنت قادراً لوفرته لك».

جفت شفتاها بشكل مؤلم، فلعقتهما متوترة.

ـ أريد أن أعرف كيف يمكن أن تكون علاقتنا.. لو التقينا بطريقة أخرى.. لو لم تختطفني.. أريد أن نبدأ مجدداً.

أن يبدأ مجدداً.. لو أن هذا ممكن، لو يستطيعان حقاً العودة إلى البداية والسير في اتجاه مختلف تماماً عما حدث لهما.. هل كانت الأمور ستختلف؟

لم تكن تعلم. كل ما تعرفه أنها لا تستطيع المغادرة قبل أن تكتشف كيف يمكن لهذا الأمر أن يكون. انتزع منها سكوت حبها الأول قبل أن

يتاح لها الوقت لتعي تماماً معنى الحب. فكل ما بقي لها ذكريات مراهقة.. لكنها كانت كافية لأن ما أحست به نحو سكوت ليس مشابهاً لشعورها هذا.

لقد كان ذلك حب مراهقة، أما ما تشعر به نحو ريكو فأمر مختلف تماماً، حب راشد، حب امرأة لرجل. حتى ولو لم يتطور هذا الحب، حتى ولو كانت الرغبة هي كل ما يشعر به ريكو نحوها، فهي تكفي للوقت الحاضر. صحيح أنها ليست الأساس الذي تبنى عليه الحياة بكاملها، لكنها ستحاول أن تجعله يحبها.

سألها ريكو دون أن تفصح لهجته وتعبيره عن شيء: «ماذا تريدين أن تفعلي؟».

ـ ماذا كنت ستفعل لو التقينا لتونا؟ لو أنك جئت بي إلى هنا للتو.. كغريبة.. ماذا كنا سنفعل؟

على الأقل، كان يأخذ وقتاً ليفكر باقتراحها دون أن يصرف النظر عنه.

ـ قد أعرض عليها العشاء، وسأكون مستعداً لتقديم أفخر الطعام الأرجنتيني.

ـ وماذا.. ماذا يمكن أن نأكل؟

ـ أكلتي المفضلة.. لحم خروف صغير منقوع بالخل مع فلفل أحمر حار مشوي، ودراق مطيب مقدم مع الطماطم، وسلطة الريحان..

كان يتحرك وهو يتكلم، يتجه إلى خارج غرفة النوم، إلى الممر الطويل المتسع. عندما وصل إلى الباب توقف، ومد يده لها.. وكأنها في حلم، وضعت يدها في يده، وتركته يقودها.

ـ يجب أن تتذوقي الايمباناداس.. المعجنات باللحم المنكهة المقدمة مع الشيمشاري، وهو مرق الأعشاب المطيبة والثوم بالزيت.

كان يسير بها نزولاً في ممر آخر بعيداً عن السلم. وذهبت فيليستي معه دون تفكير، تسير إلى جانبه، وصوته الناعم المثير يدور حولها الدخان المعطر، ليحيك تعويذة ابتهاج.

وأكمل: «ويمكننا أن نشرب أطيب العصائر.. وللتحلية.. ما غير «دولسي دولبتش» مع البطيخ والتين؟».

أحست فيليستي بشيء من خيبة الأمل وهما يصلان إلى باب خشبي مصقول في نهاية الممر، ودفعه ليفتحه.

لكن ريكو لم يتركها كما توقعت، بل ضغط على اليد الممسك بها بلطف، وأدارها، حتى أصبحت تقف معه وجهاً لوجه، وتشابكت العينان الرماديتان مع البنيتين العميقتين.

وسألت: «و.. وبعد أن نأكل.. ماذا سنفعل؟».

كانت ترتجف، لكن ليس من الخوف. فقد أتت ردة فعلها من الإحساس الحاد بالرجل الواقف أمامها. حرارة يده على يدها، القوة المسيطر عليها في أصابعه الملتفة حول أصابعها، الرائحة النظيفة المنعشة لبشرته، وكان شعره الأسود الحالك، لا يزال نديّاً ورطباً.

ـ بعد ذلك..

وانخفض صوته درجة أو أكثر، ليصبح همساً أجش جعل أصابع قدميها تلتوي داخل حذائها.

ـ بعد ذلك.. مي بيليزا.. سنرقص.. وفي الأرجنتين هناك رقصة واحدة.

تنفست: «بالطبع.. التانغو».

بعد ظهر ذلك اليوم، وفي «بلازا دوريغو» في «بوينس آيريس» شاهدت راقصي التانغو يتلوون وينحنون، ويستديرون في الهواء. وفي مدافن «شاكاريتا» وضع تمثال برونزي كبير لكارلوس غارديل، أشهر مغني التانغو، يرتدي ملابس السهرة السوداء، وشعره ملتصق إلى الوراء، مع باقات زهور حمراء عند قدميه، أو مدسوسة في ثنية ذراعه، وضعها معجبوه المخلصين.

قالت: «أخشى أنني لا أرتدي ثياباً تناسب الرقص».

كانت ابتسامتها مرتجفة. وضحكتها متوترة في حنجرتها وهي تنظر

إلى قميصها وبنطلون الجينز.

ـ هذا شيء من السهل حلّه.

أدارها ريكو مرة أخرى، وهذه المرة إلى أن أصبحت في مواجهة الغرفة. فرأت على الجدار المقابل لوحة زيتية لامرأة سوداء الشعر والعينين، ترتدي فستان فلامينغو إسباني تقليدي أحمر اللون.

فسألته: «من هي؟».

وخفق قلبها استجابة إلى الطريقة التي أمسكتها بها ذراعاه، وارتاحت يداه الطويلتا الأصابع بخفة على كتفيها.

ـ هذه جدتي.

استطاعت أن ترى الشبه في العينين والخدين المرتفعين.

ـ إنها جميلة.. وكذلك الفستان.

ـ ما زال موجوداً عندي.

وقادها بلطف إلى صندوق خشبي محفور. ورفع الغطاء، فملأ عطر خشب الصندل الجو. وأخرج ريكو بحذر لفافة أوراق هشة، ووضعها على السرير، وفتحها بأناقة لينتشر فستان حريري ناعم على مفرش السرير الأبيض.

ـ ريكو..

وأطلقت صيحة غبطة.

ـ كان مقاس جدتي قريباً لمقاسك.

والتقط الفستان، ووضعه عليها، ثم هز رأسه الأسود رضىً.

ـ منذ أحضرتك إلى هنا، حلمت بأن أراك ترتدينه.

ومرر ظهر يده على خدها، ثم نقلها إلى تحت ذقنها، ورفع وجهها بحيث التقت عيناها بسواد عينيه.

وتمتم بصوت منخفض: «حققي رغبتي كويريدا.. وارتديه».

حين ينظر إليها هكذا، ويكلمها بهذه الطريقة، لم يكن بمقدورها إنكار شيء عليه.. فهزت رأسها بصمت، ووضع الفستان بين يديها،

www.liilas.com/vb3

وبالكاد لاحظت أنها تحمل شيئاً، فالقماش الحريري رقيق وشفاف.

وقال: «سأنتظرك في الطابق الأسفل».

وكان ينتظرها عند أسفل السلم الخشبي الكبير حين ظهرت وهي تبتسم متوترة قليلاً، وقد لاح على وجهها وهج كبرياء أنثوية. قالت لها مرآتها إنها تبدو جيدة، لكن عيني ريكو قالتا لها أكثر من هذا. فقد راقبتا كل خطواتها وهي تنزل السلم، وقالت لها النظرة السوداء التي لم تتزحزح إنها جميلة.

تقدم نحوها حين وصلت آخر درجات السلم، ومد يده إليها وأمسك يدها بحزم وهي تقف قبالته.

قال بصوت أجش وبصدق عميق: «أنت مكتملة كويريدا.. ولم تبدي يوماً أكثر جمالاً. ولو استطاعت جدتي أن تراك الآن، لسرّت بأن يرتدي هذا الفستان شخص يعزز جماله كما تفعلين».

عرف أنها ستبدو مذهلة، لكنه لم يتخيل أنها ستبدو رائعة هكذا.. بدا لون الفستان الأحمر القانم مذهلاً مع بشرتها الذهبية الشاحبة.

كان ضيقاً بشدة عند الخصر، ثم ينتهي بتنورة طويلة مشقوقة في الوسط مع أهداب على الطرفين، ليكشف عن ساقين طويلتين نحيلتين. كانت ترتدي خفاً أسود اللون بكعب مرتفع زاد من طول قدميها، ورفع جسمها إلى الأمام.

لكنه لم يستطع البقاء واقفاً يتأملها رغم أنه أراد هذا. أخذ يدها وقادها إلى خارج الردهة، عبر غرفة الجلوس الطويلة، ثم إلى الشرفة حيث وضع على طاولة خشبية إبريق من عصير الفاكهة وكأسين.

ـ لم يجهز الطعام بعد.. لكن هناك العصير، هل أصب لك كأساً؟

ـ أرجوك.

الآن فقط، أدركت فيليسني أن العاصفة توقفت، ولم يعد البرق يلمع، بل أصبح الجو هادئاً. العشب الذي غسله المطر يبدو ندياً وشديد الخضرة، مع قطرات ماء صغيرة تلمع هنا وهناك كأنها الألماس.

تلامست أيديهما وهو يمرر الكأس لها، وبدا كأن رجفات ساخنة من تيار كهربائي سرت في ذراعها وتحت بشرتها، وخنقت جسمها كله.. وأجفلت كأنها احترقت ثم تمنت لو لم يحصل هذا وهي ترى تراجعه الفوري.

سألت متلهفة لإصلاح الضرر: «والموسيقى؟ هل وجدت بعض موسيقى التانغو؟».

ـ طبعاً.

تحرك إلى الداخل لحظات، وسمعت تكتكة آلة الاسطوانات المضغوطة تنفتح وتقفل. وبعد بضع ثوانٍ، تناهى إلى الشرفة صوت الموسيقى الرقيقة.

دخل صوت الموسيقى مباشرة إلى قلبها. عندما سمعت نغمات الأوكورديون الكبير الأسود والغيتار والنغم المعروف، أحست بالدموع تحرق عينيها، فأحنت رأسها بسرعة لتشرب بعض العصير وهي تقاوم مشاعرها.

ـ أتحبين أن ترقصي؟

وقف ريكو فجأة إلى جانبها، وهو يخطو خطوات خفيفة غير مسموعة حتى على الأرض الخشبية.

ـ أنا.. أنا لا أعرف كيف.

ـ إذن.. سأعلمك.

أخذ منها بلطف كأس العصير ووضعه على الطاولة. ثم تحرك بها بحيث أصبحت تقف أمامه، بعيدة بضع إنشات وذراعاها إلى جانبيها.

ـ ضعي ذراعيك هنا..

ورفع يدها اليسرى ليضعها على كتفه الأيمن، على مستوى أعلى من ذراعه.

ـ وهنا..

وشبك أصابع يده اليسرى السمراء القاسية بأصابع يدها اليمنى، ونظر

إلى عينيها.

واندست يده حول خصرها، وشدتها إليه وأبقتها مشدودة، وضع راحة يده على ظهرها، وبدا أن لمسته الخفيفة تحرقها.

- والآن إصغي إلى النغم.. إنه يعزف على يد عازفي «تانغو ريروز» حقيقيين. وموسيقى التانغو سوداء وخطيرة.. ولترقصيها، يجب أن تتركيها تستولي على جسمك، وتدخل روحك..

وسمعت فيليستي كلماته بشكل غامض عبر الضجيج في رأسها. كانت تسمع نبضاً لا علاقة له بالموسيقى التي تحيط بهما.. بل بالرجل الذي يمسك بها.

ولم يكن لديها فكرة كيف تمكنت من الرقص، في وقت لم تكن تشعر فيه بقدميها. في الوقت الذي تجمّع كل كيانها وروحها في عينيها وهما تتشابكان ونظرته الأبنوسية العميقة، التي لا تبعد سوى إنشات عن نظرها.

رقصا ببطء أولاً. ثم زادا السرعة، إلى أن أخذ رأسها يدور واشتعل جسمها بالنار. أدارها بعيداً عنه، ثم أعادها إليه، بحركة خفيفة متعجرفة. ثم ثناها إلى الخلف، يمسكها بالخصر، لا تدعمها سوى قوة ذراعه على ظهرها. ثم ضمها إليه، وحرّكت أنفاسه الحارة خصلات شعرها بلطف مما مزق قلبها الضعيف.

ومع انتهاء آخر النغمات.. شدها إليه وعانقها بقوة.. اختصر كل جمال الرقصة ونارها بعناقه.

استجابت لعناقه من كل قلبها، وارتفعت ذراعاها حول عنقه، وتشابكت أصابعها في سواد شعره الحريري. كان شوقها كنغم التانغو في دمها، يجري ذائباً في شرايينها، ويذيب معه كل الأفكار العقلانية.

تمتمت على صدره بصوت أجش: «ريكو.. قلت إن علي أن أجيء إليك بإرادتي.. وإنني يجب أن أقول إنني أريدك.. لكنني.. حسن جداً.. أنا خائفة واحتاج إلى بعض الوقت و..».

لكنها لم تستطع قول المزيد. فقبل أن تتلفظ بنصف كلامها، ضمها بين ذراعيه بصبر نافد.

هل ستكون هذه الكلمات نهاية كل ما عاشاه؟

لم تكن تعرف.. ومهما حاولت بجهد، لم تصل إلى رد، كانت متعبة جداً من التفكير.. ولأنها كانت خائفة من أن تكون هذه هي النهاية، تسللت دمعة وحيدة بائسة من عينها على صدر ريكو.

* * *

١٣ ـ لا! لا! لا!

وصل الفاكس في الصباح الباكر.

وكان ريكو يعرف ما فيه. لأنه طلب من أحد مدراء شركاته أن يرسل له تفاصيل المشكلة المالية التي يعانون منها. يبدو أن أحداً يختلس مبالغ ضخمة، منذ بعض الوقت.. ويخفيها بطرق ذكية تجعل من الصعب اقتفاء أثره. وإرسال تقرير في هذا الوقت من اليوم، مع فارق التوقيت مع انكلترا، يعني شيئاً واحداً.. لقد تمكنوا من اقتفاء أثر المذنب.

افترض أن عليه حقاً تفحص الرسالة. وسيقيّم الموقف ويرسل بالفاكس التعليمات اللازمة للملاحقة الحتمية ويعود إلى الفراش قبل أن تصحو فيليستي.

فلديه خطط خاصة جداً للحظة التي ستستيقظ فيها.. وسيطلب منها أن تتزوجه.. وإذا كان ما جرى في الأمس من أحداث قد علمه شيئاً، فهو أنه يستحيل عليه أن يقضي بقية أيامه من دون هذه المرأة في حياته.

كان التقرير أطول مما توقع. وتغير مزاجه تماماً.. اختفى المرح المتكاسل لتحل الصدمة وعدم التصديق مكانه، إضافة إلى موجة سوداء من الغضب مسحت من رأسه أي فكرة أخرى.

وتمتم بوحشية: «جو هاملتون..».

شدت يده بقسوة على الورقة: «فلتحلّ اللعنة عليه.. وعلى ابنته المخادعة الكاذبة!».

في تلك اللحظة، اندفع الباب ببطء ووقفت فيليستي وهي لا تزال

ترمش بنعس، على عتبة الباب.

بدا واضحاً أنها خرجت لتوها من السرير. كان شعرها لا يزال مشعثاً، وخداها محمرين، وقد ارتدت عباءة كبيرة أخفت شكلها النحيل، رغم أنها شدت الحزام بقوة حول خصرها.

لم يدرك مدى غضبه إلا حين فهم ردة فعل جسمه لمجرد رؤيتها والتفكير فيها.

وتمكن من أن يقول بسخرية: «صباح الخير كويريدا».

ثمة خطب هنا.. كما فكرت فيليستي.. لقد استيقظت منذ بضع دقائق، وارتدت العباءة، وهي تتوقع أن يكون سعيداً لرؤيتها.

لكن السعادة وصف يختلف تماماً عن مزاج ريكو، فقد كانت عيناه سوداوين رفضاً، وفمه الجميل مشدوداً في خط بشع. حتى كلمة «كويريدا» انقلبت لتكون إهانة لا وصفاً لطيفاً للحب اعتادت عليه.

ـ ريكو؟ ما الخطب؟

أوه.. كم هي جيدة! لو لم يكن لديه الدليل على العكس، لصدق أنها تعني فعلاً ما تقول، وأنها لا تشك..

لكنها بالطبع لا تعرف أن الفاكس الذي يحمله هو دليل فسادها، ونهاية مخططها الصغير، وهذه الأحلام القصيرة المرتبكة بالمستقبل معها التي سمح لنفسه أن يفكر فيها. وجاءت لهجته متوحشة وهو يستدير نحوها: «ما الخطب؟ بحق السماء.. هذا.. هذا هو الخطب!».

حدقت فيليستي ببلاهة في الورقة التي دسها بين يديها. وصل عبوسه القاتم إلى حد ارتكاب جريمة، ولم يعد لديها خيار سوى أخذ الورقة منه ومحاولة قراءتها.

تراقصت الأحرف في البداية أمام عينيها لكنها أجبرت نفسها على التركيز وتمنت على الفور لو لم تفعل.

ـ أوه.

ردد بعنف مكبوح: «أوه! هل هذا كل ما يمكنك قوله؟».

أفزعتها النبرة الخشنة في صوته، وتركت أعصابها ضعيفة.

وجعل الألم صوتها عالياً وحاداً: «وما غير هذا تريدني أن أقول؟ أن هذا غير صحيح؟».

سيكون غبياً بما يكفي ليصدقها لو قالت هذا. وقد يصدق ذلك لو أراد، لأنه يأمل ألا يكون لها دخل بكل هذا. فلو كانت تعرف، فكيف يمكن أن يقنع نفسه أنها هنا معه لأنها تهتم به وليس لأن وجودها هو المرحلة التالية للخطة الدنيئة التي حضرتها مع والدها.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ أجل.

جاء ردها بصوت رفيع، أضعف من أن يكون واضحاً حتى وهي قريبة جداً.

ـ ماذا؟

ـ قلت أجل! أجل.. هذا صحيح. أجل أغرق والدي نفسه في الديون، وأجل، أخذ مالك، وأجل كنت سأتزوج ادوارد لأنه وعدني بأن يدفع لك المال وأنك لن تكتشف شيئاً.

أرجع رأسه إلى الوراء بحدة، وازدادت عيناه سواداً، فهو لم يفكر في هذا. لقد نسي، فعلياً، أنها كانت على وشك الزواج من ادوارد فيتابيلز.

لم يعرف ألماً كهذا في حياته. كان الإحساس بالخيانة كالنار في أحشائه، يتآكله بوحشية. ذلك الصباح فقط، وفي ساعة الصمت الطويلة قبل الفجر، أدرك أنه يحبها.. هذه المرة الأولى التي يستخدم فيها تلك الكلمة ليصف علاقته بامرأة، ولو وصل الفاكس بعد ساعة أو أكثر لاعترف لها.. لكان طلب منها..

قال ساخراً: «لكنني اكتشفت الأمر غاتيتا. اكتشفت الأمر وكل خططك، كل كذبك، كان دون جدوى».

علقت الكلمات في حلقها، تخنق جوابها: «أوه.. لا! لا! لا!».

ـ أوه.. هيا الآن كويريدا.. أرجوك.

كانت سخريته أقسى من أن تحتمل وهو يستند إلى حافة المنضدة، وعيناه السوداوان تسخران منها بقسوة.

ـ لا تقولي لي إنك ما زلت تحاولين الالتزام بقصتك.. وإنك ما زلت تدعين أنك تريديني من أجل نفسي.

ـ لكن هذا صحيح! صحيح!

ورمت الكلمات في وجهه المتحجر، والعذاب يمزق قلبها وهي ترى أنه لا يظهر أي نوع من المشاعر. كانت تستطيع أن تضرب الحاجز الذي بناه حوله إلى أن تدمي يديها وتنزف، ولن يكون هناك استجابة.

قال بسخرية: «وفري علي الادعاء.. لعلي ابتلعت الطعم، لكنني هذا الصباح أزحت الغشاوة عن عيني تماماً. وأستطيع أن أراك على حقيقتك، وصدقيني، لا يعجبني ما رأيت».

ـ هل تظن حقاً..

ـ أنا لا أظن.. أنا أعرف.. أعرف أنك كاذبة ومحتالة، وأنك ووالدك من صنف واحد.. لذا أخبريني غاتيتا..

استخدامه للكلمة التي كانت يوماً لطيفة جعل أصابع قدميها الحافيتين تتلوى برعب على الأرض الخشبية.

ـ كل تلك الليالي التي أمضيتها في ذلك النادي الليلي.. أكنت تنفقين مالي هناك، أم..

قاطعته فيليستي بحدة: «النادي الليلي؟ أنا لا أعرف عمّا تتكلم! أي ناد ليلي؟».

ـ نادي «توب هات» أعتقد أن هذا اسمه. لقد شوهدت هناك.. كان لي من يراقبك.

ـ أنت..

ودار رأسها رعباً لأنها عرفت بمرارة أنه يصدّق فعلاً..

ـ إذن.. معلوماتك خاطئة! التحري أو من استخدمته لم يقم بعمله، لأنه لو فعل لعرف أنني لم أكن أستمتع بوقتي في ذلك المكان! ولم أكن

أصرف مالك فيه.. اللعنة عليك! بل كنت أكسب فيه المال! كنت أعمل هناك!

ـ لكن، كان لديك وظيفة..

ـ لكنها لم تكن وظيفة تكفي لتسديد ما يدين به والدي لك! ما سرقه منك!

لم يكن يتوقع سماع هذا، فقد بدا هذا في نظرته المصدومة. لم تعد تهتم إن كان يصدّقها أم لا، فلو كانت تؤمن بوجود فرصة لها مع ريكو، فهي تعرف الآن أن هذا الحلم لم يكن سوى وهم، وقد مات. تألم قلبها المجروح، حين نظرت إلى عينيه ولم ترَ فيهما سوى الاحتقار الأسود والرفض الكامل.

ـ أوه.. أعرف أن ما كسبته لم يكن سوى نقطة في بحر الديون التي يدين بها أبي. لكن كان علي أن أفعل شيئاً! وما زلت.. ريكو أرجوك..

لم تستطع منع نفسها من التقدم إلى الأمام، والإمساك بيديه. توسلته عيناها كي يستمع إليها، رغم أنها عرفت أنها تخاطر بسماع الرفض الذي سيشطر قلبها إلى نصفين.

ـ أرجوك.. أعطني فرصة.. أعطني وقتاً.. يعاني والدي من مشكلة القمار، وأوصله هذا إلى المتاعب والديون، وقد اعتقد أن الطريقة الوحيدة لإيفاء الدين هي بسرقة أموالك، لكنه يعرف أن ما فعله غلطة، وسيحاول.. إنه يقابل طبيباً نفسياً، وأنا واثقة من أنه يسلك طريق الشفاء، وسأفعل كل ما أستطيع.. كل ما أستطيع..

وماتت الكلمات على شفتيها عندما أبعد ريكو يديها عنه بقرف بارد، واستقام ليسير إلى النافذة. حدق إلى الخارج للحظات طويلة دون أن يرى شيئاً، ثم استدار أخيراً.

سأل بخشونة: «أي شيء؟».

أرسلت البرودة في عينيه والتعبير الفارغ على وجهه رجفة على عمود فيليستي الفقري.

وتمكنت من القول بارتباك: «أي.. أي شيء».

ابتسم أمام ذهولها، لكن الابتسامة كانت أسوأ بكثير من برودته، ومن الرفض الخشن.

ـ حسن جداً إذن.. ليس لدينا مشكلة.

ـ نحن.. ليس لدينا مشكلة؟

ـ لا.. ليس لدينا مشكلة.

وعاد إلى المنضدة، وأراح يديه على سطحها المصقول، ومال إلى الأمام لينظر مباشرة في وجهها. اضطرت فيليستي أن تقاوم بقسوة الرغبة في أن تتراجع مجفلة من نظرته القاسية الخالية من الإحساس التي مررها فوقها من قمة رأسها الأشقر إلى قدميها الحافيتين اللتين تستريحان على الأرض.

ـ أعتقد أن لدي حلاً، سيناسبنا معاً.

حل.. هذا ما تحتاج إليه يائسة.. فلِمَ لا يبدو مناسباً؟ لمَ تثقل هذه الكلمات التي يجب أن ترفع قلبها وتجعله يرقص أملاً وراحة، كاهلها أكثر مما مضى، وتهدد بأن تجرها عميقاً إلى أعماق يأس لا قرار له؟

ـ أي نوع من الحلول؟

حبذا لو تستطيع إغماض عينيها بشدة كي لا ترى متألمة جمال وجهه الرجولي القاسي، ولا بريق عينيه، ولا شعره الأسود اللماع.

وكالعادة، تشتتت أفكارها، وأربكتها في وقت تحتاج فيه إلى أن تركز وتفكر بوضوح.

ـ الحل هو أن نحصل جميعاً على ما نريد، بغض النظر عن الطريقة.

هزت فيليستي رأسها بحيرة: «أنا لا أفهم».

ـ تزوجيني.

جاءت كلماته كصفعة على وجهها، أوقفتها مسمرة، وجعلت ما تبقى من لون على وجهها يتلاشى عن بشرتها ويتركها صفراء جافة.

ـ أتزوج..

ارتسمت على وجهه ابتسامة شريرة أخرى، أسوأ من التي سبقتها.

ـ هناك إفادة في هذا لنا جميعاً. تحصلين أنت على الزوج الثري الذي سعيت إليه منذ البداية.. وهو أكثر ثراء بكثير من ڤيتابيلز. وتدفعين ديون والدك وتجعلينه آمناً من الملاحقة القانونية..

ـ وأنت؟

ـ أوليس هذا واضحاً يا ملاكي؟ سأحصل عليك كل ليلة.

أحست بطعم البؤس حامضاً في فمها. ولم تعد قادرة على ابتلاع ريقها خوفاً من أن تتقيأ، ولم تستطع سوى أن تهز رأسها بيأس صامت أمام اقتراحه.

سألها ريكو بارتياب: «لا؟ أنت ترفضين طلبي؟».

ـ حتى أنني لن أمنح اقتراحك شرف التفكير فيه!

وأجبر الألم فيليستي على الكلام: «لا أعرف كيف يمكن أن تصدق أنني قد أفعل. لن أستطيع الزواج بك وفق هذه الشروط!».

ـ لِمَ لا؟ كنت مستعدة للزواج من ادوارد.

ـ أجل.. لكن..

أجل لكن.. لم أكن أحب ادوارد!

لجمت لسانها بسرعة وقد ذعرت لما أوشكت على كشفه.

ـ لكنني.. لم أستطع التفكير بأي شيء آخر أفعله.

ـ والآن تستطيعين؟

ـ لا.. لكنك لن تستطيع..

ـ بل أستطيع..

ـ ستتزوجني وتدفع كل ذلك المال.. لمجرد أن.. ألن يكون إحضار غانية أقل كلفة؟

سرت نظرته المتوحشة على بشرتها.

ـ أنا لا أرضى بالرخيص! بل أريد الأفضل!

ـ والأفضل هو أنا؟

ـ لا تحطي من قدر نفسك كويريدا. ادوارد لا يعرف ما خسره.

ـ ما دخل ادوارد؟

وأضافت بعد قليل: «في الواقع، أشك كثيراً في أنني كنت سأمضي قدماً في ذلك الزواج، لو لم أكن أفعل هذا من أجل أمي».

وأدركت متأخرة ما قالت، فوضعت يديها على فمها محاولة إرجاع الكلمات، لكن الوقت كان قد تأخر كثيراً.

وسأل ريكو بحدة، وهو يقف مستقيماً: «أمك؟ وما دخل أمك بكل هذا؟ هل تعرف ما يجري؟».

ـ لا! لم تكن تعرف. ولا تزال لا تعرف، فالشيء الوحيد الحسن الذي قام به أبي هو إخفاء كل شيء عنها.. لم يتركها أبداً تشك بوجود خطب. فصحتها ليست جيدة.. قلبها ضعيف، وقد حذرنا الطبيب من تعرضها للضغط، وللقلق. أي نوع من المشاكل قد.. ولو حصل لها نوبة قلبية أخرى، يمكن أن..

ولم تستطع قول الكلمة. لم تستطع إجبار لسانها على تشكيل الكلمة. لكنها عرفت أنها ليست مضطرة لذلك. فقد عرف ريكو ما تعني ورمقها بنظرة تفهم امتنت لها. فقد أدخلت القليل من الدفء لإذابة الثلج الذي يغلف قلبها وأعطتها القوة لتستمر.

ـ لهذا السبب، لم أستطع رؤية أبي يذهب إلى السجن.. أوه، أنا لا أشك في أنه يستحقه من أجل ما فعله. لكن هذا سيؤذي أمي بشكل رهيب، ولا أعتقد أنها ستستعيد عافيتها بعد ذلك.

ـ ويعرف ادوارد بهذا؟

هزت فيليستي رأسها ببطء، وارتسم تعبير كئيب على وجهها: «إنه يعرف».

ـ واستغل المسألة لصالحه.. ذلك النذل!

بدا صوت ريكو خشناً وغير سوي، يعكس عذاب ضميره. ومع أنه يكره التفكير بطريقة تصرف ڤيتابيلز، لكن أنّى له أن يدّعي البراءة في كل

هذا؟ أوليس سيئاً كذلك الرجل الآخر؟

وفيليستي؟ ما رأيه بفيليستي؟ إنه لا يعرف.. هذه هي الحقيقة.. بدا أن تفكيره يتأرجح ذهاباً وإياباً، بين الحب والكراهية.. مع ذلك، وفي أعماقه، أدرك أن سبب كرهه هو حبه الكبير لها وقد جُرح قلبه. لذا فالشعوران واحد طوال الوقت.

وتمكن من أن يقول بصوت أجش: «إذن.. اقتراحي.. ما هو ردك؟».

عضت فيليستي على شفتها السفلى بحدة لتكبح صرخة الألم التي كادت تفلت منها. فما ستقوله قاسٍ جداً، جداً عليها. لكن عليها أن تقوله.

ـ ردي هو لا.

وأدهشت نفسها بثبات كلماتها، وبالقناعة التي بدت في رنة صوتها.

ـ ولا يمكن أن يكون أي شيء آخر.

ـ لكن.. أمك.. وأباك..

ـ أرجو أن يفهما. وسأكون قربهما لأساعد قدر الإمكان. ربما لو أعطيتنا المزيد من الوقت، قد نتمكن من رد المال لك. لكنني لا أستطيع أن أتركك تفعل هذا ريكو، أنت لا تريد أن تتزوجني، وأنا لا أستطيع طلب هذا منك.. إنه كثير.

واستدارت وهي تتكلم. في الثانية التالية، ستخرج من الباب، وسيفقدها إلى الأبد.

ـ سأنسى الأمر كله.. سألغي الدبون.. ولن ألاحق والدك.. ولا قيود.

ـ ماذا؟

استدارت على عقبيها، مصدومة، مشوشة الفكر، وعدم التصديق مكتوب على وجهها.

ـ ريكو.. أنت لا تعني هذا؟ لِمَ تفعل هذا؟

ـ أستطيع التحمل.

أفصحت النظرة الدفاعية الغريبة في عينيه واشتداد عضلات فكه، بأن رنة صوته غير المكترثة لم تكن حقيقية أبداً. ولو استطاعت أن تنظر عن كثب لرأت خطوط التوتر البيضاء محفورة حول أنفه وفمه، وحول عينيه.

قالت بحذر، تتحسس طريقها دون أن ترى جيداً بسبب الصدمة: «أعرف أنك تستطيع التحمل. لكن لما تفعل ذلك من دون أن تحصل على شيء في المقابل؟ هذا غير منطقي.. إنه جنون».

ـ الحب يجعلنا جميعاً أغبياء.

ـ ماذا؟

أتستطيع تصديق ما سمعت؟

ـ ريكو..

رفع يديه في الهواء في إيماءة إحباط، والتوى فمه الجاف.

وأعلن، بلمسة شجاعة: «أجل.. لقد قلت الحب. وإذا كان هذا يجعلني غبياً، فأنا لا آبه أبداً.. فأنا أحبك أكثر من حياتي، وأكثر من احترامي لنفسي، وسأفعل أي شيء لأبقيك معي».

انتعش قلب فيليستي، وغنّى الدم في عروقها. لقد نطق ريكو بالكلمات التي لم تسمعها سوى في أحلامها، ولم تخل أبداً أنها ستسمعها في الحياة الحقيقية.. لقد قال إنه يحبها.

قالت بنعومة، لكن بلهفة، وهي تريده أن يسمع: «إذا كان الحب يجعلك غبياً.. فأنا إذن أكثر غباءً منك.. لأنني أحبك أيضاً ريكو.. وأنا مجنونة بحبك.. أكاد أفقد عقلي حباً بك».

تعابير وجهه جعلت الدموع تترقرق في عينيها. وكان وجهه مزيجاً مكتملاً من الارتباك المذهول والسرور الحارق.. وقد ذاب النور الساطع الذي أدفأ ظلمة عينيه. لم تعد تشك مطلقاً بأنه يشعر بالطريقة ذاتها.

ـ پورديو.. غاتينا.. تعالي إلى هنا ودعيني أضمك.

وطارت إلى ذراعيه الممدودتين، وأحست بهما يطبقان حولها،

يغمرانها، يجعلانها قريبة منه، وأحست أنها عادت إلى موطنها بعد رحلة طويلة يائسة.

عانقها ريكو بحرارة لم تعهدها من قبل، وطرد هذا العناق أي شكوك أو تساؤلات عالقة. طاف قلب فيليستي بسلام عميق حارق ورضى لم تعرف مثلهما من قبل. كانت تجربة رائعة، عظيمة، وغامرة تماماً، تجربة تنبؤها كل غريزة فيها أنها ستمر بها كل يوم لما تبقى من حياتها مع ريكو.

تمتم ريكو بخشونة: «لكنك قلت إنك لن تتزوجيني».

ردت فيليستي، وقد ضاعت في أعماق بحيرتي عينيه: «ما كنت لأقدر أن أعيش معك دون إظهار حبي. وحين اعتقدت أنك لا تحبني، عرفت أنني لن أستطيع فعل هذا، حتى لإنقاذ أبي.. كما إنني لا أستطيع فعل هذا بك، فأنت تستحق أفضل من هذا بكثير. أنت بحاجة إلى زوجة تحبها.. زوجة تحبك..».

ـ والآن وجدتها. لقد وجدت أكثر من زوجة. وجدت رفيقة الروح، امرأة سأكون فخوراً بأن تكون إلى جانبي الآن وفي المستقبل.. هذا إذا قبلت بي.. كويريدا.

ـ بالطبع أقبل بك.

وتنهدت فيليستي بسعادة، مكملة: «ما كنت لأقبل أي رجل بعد أن التقيتك.. أنت مستقبلي.. حبي.. سعادتي.. وحياتي».

ـ وأنت لي..

* * *

توقفت السيارة أمام المنزل، ودفع ريكو الباب ليفتحه، وخرج باستعجال. ثم استدار حول السيارة، ومد يده إلى فيليستي التي تجلس في المقعد الخلفي، وهي ترتدي فستان عرسها العاجي اللون.

قال بنعومة: «نحن هنا كويريدا. نحن في بيتنا».

بيتنا.. تلذذت فيليستي بطعم الكلمة وهي تنزل من السيارة لتقف إلى

جانب زوجها، وتستند إليه قليلاً وهي تتأمل المنزل الأنيق أمامها.

بدا من المستحيل أن تتذكر شعورها حين رأت هذا المنزل للمرة الأولى يوم خطفها ريكو وجاء بها إلى هنا. كل شيء قد تغير بحيث بدا من المستحيل أن يكون قد مضى شهر واحد.

همس ريكو: «سعيدة؟».

لم تستطع سوى أن تطرق برأسها صامتة، مليئة بالفرح، عاجزة عن الكلام.

وأكمل: «السعادة لا تصف شعوري.. أنا الرجل الأكثر سعادة على وجه هذا الكوكب، ولا أستطيع وصف مشاعري بالكلمات».

ولم يكن مضطراً لهذا، فقد ظهرت غبطته بابتسامته وفي بريق عينيه، وذبذبة صوته.

ـ كان زفافاً رائعاً.. أليس كذلك؟ وبدا أن الجميع يستمتع بوقته.. حتى ادوارد.

طمأنته فيليستي: «ماريا وادوارد سيستقران.. إنها صغيرة جداً، وكلاهما سيتعلم أن العالم لا يبدأ أو ينتهي عندهما. لكن، وحسب ما أخبرني به ادوارد، أعتقد أنه يحب ماريا بصدق، وسيحاول أن يجعلها سعيدة».

ـ كما سأفعل أنا معك.

ـ أنت لست مضطراً للمحاولة.. لقد جعلتني أسعد شخص في العالم حين جعلتني زوجتك.

ورفعت نظرها إلى عيني ريكو الدافئتين، وضحكت للذكرى.

ـ أعتقد أن الجميع ظن أننا مجنونان، فنحن لم نبدل ثيابنا قبل مغادرتنا حفل الاستقبال.

ـ لم يكن أحد يعرف أن لدينا مراسم خاصة يجب أن نتمها بأنفسنا.. مستعدة؟

هزت رأسها مبتسمة، ومد يديه ليرفعها ويحملها بين ذراعيه.

حملها من فوق عتبة الباب إلى البيت الذي سيعيشان فيه، ثم صعوداً على السلم المتسع وإلى غرفة نومهما، ثم ضرب الباب بشدة ليقفله خلفهما.

* * *

www.liilas.com/vb3